



كتاب الإسلام  
وأدلته

تأليف  
أبي حمزة الأفغاني



العنوان: كتاب الإسلام وأدلته

المؤلف: أبو حمزة الأفغاني

الإصدار الأول: ٢٣/جمادى الآخرة/١٤٣٣ هـ - ١٤/٥/٢٠١٢ م

هذا الإصدار الثاني: ٢٩/رمضان/١٤٣٥ هـ - ٢٧/٧/٢٠١٤ م (تمّ فيه إصلاح بعض الأخطاء المطبعية ونحو ذلك).

التصميم: [www.risalatun.com](http://www.risalatun.com)

بسم الله الرحمن الرحيم

# كتاب الإسلام وأدلته

تأليف

أبي حمزة الأفغاني

[www.risalatun.com](http://www.risalatun.com)

﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ  
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (النساء: ٥٩)

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ (الشورى: ١٠)

((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا  
أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهَا)) (رواه البخاري)

المقدمة ..... ٨

باب: في بيان مضمون هذا الكتاب ..... ٨

باب: في بيان واقع الناس في هذه المسائل ..... ١٢

القسم الأول: بيان معنى الإسلام والأدلة على التفريق بين المسلم

والمشرك ..... ١٣

١ - باب: معنى كلمة الإسلام ..... ١٣

فصل: أهمية ألفاظ الشرع ولفظ الإسلام خاصة ..... ١٣

فصل: وصف النبي ﷺ الإسلام بأنه إفراد الله بالعبادة وترك الشرك ..... ١٣

فصل: في معنى الإله وشهادة الإسلام وأن مشركي قريش كانوا أعلم به من كثير من

المنتسبين إلى الإسلام اليوم ..... ١٤

فصل: معنى سَلِمَ الذي هو أصل لفظ الإسلام في اللغة ..... ١٦

فصل: استعمال سَلِمَ في القرآن ومَثَلُ المسلم والمشرك ..... ١٦

مبحث: ما يلزم المخالف في هذه الآية ..... ١٨

مبحث: معنى الفعل أَسْلَمَ ..... ١٩

فصل: بيان كلمة الإسلام في القرآن ..... ٢١

مبحث: إسلام الوجه هو الإخلاص ..... ٢٢

مبحث: شعر زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه ..... ٢٣

فصل: زيادة بيان معنى الإسلام وأن المشركين المخاطبين به فهموا معناه ..... ٢٤

- مبحث: الإسلام العام دين الأنبياء جميعا ..... ٢٧
- مبحث: وأحيانا يأتي أن جميع الأنبياء أمروا بلا إله إلا الله أو بعبادة الله وحده أو بترك  
الشرك أو يأتي ذلك مجموعا, وكل ذلك هو الإسلام ..... ٢٩
- مبحث: دين الله هو الإسلام, لا يقبل غيره ..... ٢٩
- مبحث: الإسلام هو ملة إبراهيم وهو الحنيفية دين الحنفاء ..... ٣٠
- مبحث: دين الله هو دين الفطرة فتمكن معرفته بالفطرة والعقل في الأصل ومعنى الميثاق  
الذي أخذه الله على الناس ..... ٣٢
- فصل: الإسلام هو الإخلاص والإخلاص لا يوجد في أحد من المشركين ..... ٣٦
- فصل: الإسلام هو الحنيفية والمشرک ليس حنيفا ..... ٣٧
- فصل: الإسلام هو ملة إبراهيم والمشرک مخالف لأساسها ..... ٤٠
- مبحث: لو كان الإسلام مجرد الانتساب إليه لكان عبادة الأصنام مسلمين ..... ٤١
- فصل: الإسلام هو الكفر بالطاغوت والمشرک لا يحقق ذلك ..... ٤٢
- فصل: معنى كلمة الشرك ..... ٤٣
- ٢- باب: التوحيد أصل الإسلام فكيف يكون على الإسلام من لم يُحَقِّقْ أصله؟ ..... ٤٦
- فصل: المشرك لم يحقق ما خلق له ..... ٤٦
- ٣- باب: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ...﴾ وحديث امتحان من لم تبلغه رسالة  
رسول وحديث (لا يدخل الجنة إلى نفس مسلمة) ..... ٤٧
- ٤- باب: المشرك الجاهل لا يعرف معنى لا إله إلا الله ..... ٤٩
- ٥- باب: لا يدخل المشرك الإسلام إلا بالتوبة من الشرك ..... ٥٢
- فصل: أول ما يدعى إليه المشرك هو التوحيد ..... ٥٣
- ٦- باب: من جعل نوعا من المشركين مسلمين بجهلهم يلزمه ذلك حتما في جميع  
أنواع المشركين ..... ٥٤
- فصل: ومن فعل ذلك في نوع من الشرك فإنه يلزمه ضرورة في جميع الأنواع ..... ٥٥

- فصل: كثير من المشركين السابقين أولى بالإسلام على أصلهم ..... ٥٥
- فصل: مخالفة للقرآن والسنة والإجماع من وجوه كثيرة..... ٥٦
- فصل: عامة المشركين إنما يقعون في الشرك بسبب جهلهم..... ٥٧
- ٧- باب: الشرك يحبط جميع الأعمال..... ٥٧
- ٨- باب: مخالفة آيات كثيرة من القرآن وأن لفظ المشركين فيه يشمل الجاهل منهم في الأصل بلا شك..... ٥٩

## القسم الثاني: إثبات عذر المشرك بالجهل ..... ٦٥

- باب: لا عقوبة إلا بعد الرسالة والأمر والنهي..... ٦٥

## القسم الثالث: بيان معنى الكفر بالطاغوت ..... ٦٩

- ١- باب معرفة معنى الطاغوتِ أوجب الواجبات..... ٦٩
- ٢- باب أصل معنى الطاغوت في لغة العرب..... ٧٠
- ٣- باب معنى الطاغوت هو كل ذي طغيان على الله وكل ما عبد من دون الله ..... ٧١
- فصل: ذكر بعض السلف أمثلة مختلفة للطاغوت في تفسيرهم..... ٧٢
- فصل: تنبيه إلى قاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) ..... ٧٢
- ٤- باب الدليل على أن الشيطان هو الطاغوت الأكبر وبيان كيفية عبادته..... ٧٣
- ٥- باب الطواغيت كثيرة وتسميه النبي ﷺ الأصنام طواغيت ..... ٧٤
- ٦- باب الكفر بالطاغوت والإيمان بالله أوجب الواجبات وأولها ..... ٧٥
- فصل: من لم يكفر بالطاغوت لم يدخل في الإسلام..... ٧٦
- ٧- باب من عبادة الطاغوت والإيمان به أتباعه فيما يأمر به من الكفر ..... ٧٧

- ٧٨ ..... ٨ - بابٌ كيف يُحقَّقُ الكفرُ بالطاغوت.
- ٧٩ ..... ٩ - بابُ التوحيدِ أولاً.
- ١٠ - بابٌ أنصارُ الطواغيتِ من علماءِ السوءِ وسائرِ جنودِهِم كفارٌ، وأهمُّ أسبابِ  
٧٩ ..... كفرِهِم وشركِهِم.
- ٨٠ ..... ١١ - بابٌ بيانُ أنَّ الطاغوتَ أكفرُ الكفرةِ وبعضِ صفاتِهِ وفوائِدُ أخرى.
- فصل: معنى إخراجِ الطاغوتِ الذين كفروا مِنَ الإيمانِ إلى الكفرِ هو أن يُضِلَّهُم عن  
٨٢ ..... الإيمانِ ويَصُدَّهُم عنه.
- ٨٣ ..... ١٢ - بابٌ ليس طاغوتاً من يُعبد من دون الله وهو كارهٌ لهذه العبادة.
- ٨٣ ..... ١٣ - بابٌ أنواعُ الطاغوتِ، وأهمُّ الطواغيتِ في زماننا.
- ١٤ - بابٌ قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنِّ  
وَالطَّاغُوتِ...﴾ ..... ٨٥
- ٨٦ ..... ١٥ - بابٌ التحاكمُ إلى الطاغوتِ إيمانٌ به وعبادةٌ له من دون الله.
- ٨٩ ..... ١٦ - بابٌ قوله تعالى ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ...﴾

## القسم الرابع: شبهات من نصوص القرآن والسنة ..... ٩٠

- ٩٠ ..... ١ - باب: حديث ذات أنواط
- ٩١ ..... فصل: القول الأول: هؤلاء الصحابة ما طلبوا شركاً أكبر
- ٩٢ ..... مبحث: ما يبين أن هؤلاء الصحابة ما طلبوا الشرك الأكبر
- ٩٢ ..... مبحث: القول بأن هؤلاء الصحابة ما عرفوا حقيقة التوحيد في غاية البعد
- ٩٣ ..... فصل: القول الثاني: هؤلاء الصحابة طلبوا الشرك الأكبر
- ٩٥ ..... مبحث: سبب عدم ذكر حكم الردة في الحديث
- ٩٥ ..... الاحتمال الأول

- الاحتمال الثاني ..... ٩٦
- فصل: تنبيه إلى خطأ في فهم هذا الحديث ..... ٩٧
- فصل: نتيجة التأويل الفاسد لهذا الحديث ..... ٩٧
- ٢- باب: حديث سجود معاذ بن جبل رضي الله عنه ..... ٩٩
- فصل: الفهم الصحيح لهذا الحديث ..... ١٠٠
- فصل: ما يترتب على القول الباطل ..... ١٠٠
- ٣- باب: شبهة (إن الله تجاوز عن الخطأ لمن كان من أمة محمد ﷺ) ..... ١٠٣

## القسم الخامس: البراءة من المشركين لا يتم الإسلام إلا بها ..... ١٠٥

- باب: تأكيد أهمية البراءة من المشركين في الكتاب والسنة ..... ١٠٦
- باب: شبهة من قوله تعالى ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنافِقِينَ فِتْنَنَ﴾ ..... ١١٣
- باب: شبهة أنّ من لم يكفر تارك الصلاة يمكن عذره ..... ١١٦

## القسم السادس: بيان الكفر والتكفير وإطلاقات العلماء المختلفة لهما

## وموانع التكفير وبعض الشبهات في هذا الباب ..... ١١٨

- باب: معنى كلمة التكفير وأن قول بعض أهل العلم (لا نكفر من عبد صنم كذا وكذا) لا يعني الحكم بإسلامه البتة ..... ١١٨
- فصل: المراد من (الكفر المعذب عليه) ..... ١١٩
- فصل: معنى الكفر في اللغة يتضمن هذا المعنى ..... ١٢١
- باب: متى يعذر بالجهل في إنكار بعض أخبار الشرع وحقيقة هذا العذر ..... ١٢٢
- باب: موانع التكفير والخطأ في فهمها ..... ١٢٣



القسم السابع: الأعذار الممكنة لمن أخطأ في شأن البراءة من المشركين  
والتحذير من الغلو في التكفير ..... ١٢٦

باب: جهل الحال وتأويله ..... ١٢٦

باب: قصد الأفعال والأقوال المحتملة وتسميتها شركا أكبر ..... ١٢٧

باب: تسمية بعض المشركين مسلمين بقصد المنتسبين إلى الإسلام مع قرينة تدل

عليه ..... ١٢٧

باب: خطأ إلحاق المشرك الجاهل بالمسلمين في الظاهر اسما وحكما مع نفي

حقيقة الإسلام عنه ..... ١٢٨

فصل: فالضلال المتصور في هذا الباب يمكن أن يصنف إلى الدرجات التالية ..... ١٢٩

فصل: مثال تقريبا لفهم كيف قد تحصل مثل هذه الضلالات ..... ١٣٠

فصل: مناقشة أمور قد يستدل بها على أن هذا القول يشمله نوع من العذر في الأصل... ١٣١

مبحث: قصة عبد بن زمعة في افتراق الأسماء والأحكام أحيانا ..... ١٣١

مبحث: من أثبت اسم الزوجية وحكمها مع انتفاء حقيقتها ..... ١٣٢

مبحث: المعتزلة ..... ١٣٤

مبحث: من قال لأخيه يا كافر ..... ١٣٥

مبحث: حقيقة قول الكرامية ..... ١٣٧

فصل: خلاصة ما سبق في هذا الباب ..... ١٣٨

فصل: مسألة قيام الحجة وآخر درجات الضلال ..... ١٤٠

## المقدمة

### باب: في بيان مضمون هذا الكتاب

في هذا الكتاب - رحمك الله - ذكر الأدلة المبينة لمعنى الإسلام وما يتعلق به، ففيه أهم المسائل التي يجب على كل مسلم ومسلمة أن يعلمها ليقى نفسه فتن الدنيا وعذاب الآخرة، وهي:

- ١ - بيان معنى الإسلام وأنه عبادة الله وحده وترك الإشراك به في شيء من خصائصه<sup>١</sup> وأنه ملة إبراهيم الحنيفية وأنه دين جميع الأنبياء وأنه الإيمان بالله والكفر بالطاغوت.
- ٢ - بيان أن المشرك<sup>٢</sup> لا يكون مسلماً بحال، حتى إن كان جاهلاً معذوراً بجهله<sup>٣</sup>،

---

<sup>١</sup> أي الشرك الأكبر. وإذا أطلق لفظ (الشرك) فالمراد هو الشرك الأكبر المخرج من الملة، ويخرج بذلك الشرك الأصغر. والكلام في هذا الكتاب كله على الشرك الأكبر.

<sup>٢</sup> والمراد بالمشرك - في هذا الكتاب كله - هو من تحققت فيه حقيقة الشرك بإظهاره الشرك الأكبر الصريح قولاً أو فعلاً، فيخرج بذلك من تلبس ببعض مظاهر الشرك من الأفعال أو الأقوال التي قد تحتمل غير الشرك الأكبر.

<sup>٣</sup> (المشرك الجاهل) - في هذا الكتاب كله - هو الذي لم تقم عليه حجة الرسالة التي يبلغها الرسل، لأنه لا يتمكن من العلم بها بحال:

والمنتسب إلى الإسلام<sup>١</sup> وغير المنتسب في هذا سواء. وكيف يحقق (لا إله إلا الله) من اتخذ إلهين وجعل لله شركاء في العبادة؟  
فالمشرك الجاهل تنتفي عنه أربعة أمور:

• ١- حقيقة الإسلام

• ٢- اسم الإسلام

• ٣- أحكام المسلمين في الدنيا

• ٤- أحكام المسلمين في الآخرة

وهذه مسألة عظيمة قد ضل فيها أقوام في هذا الزمان، فعلى المسلم أن يتقنها أيما إتقان.

٣- بيان أن المشرك الجاهل معذور بجهله<sup>٢</sup>. وبه يتخلف بعض أحكام الكفر، وهي أن لا يعاقب في الدنيا والآخرة، فلا يقاتل ولا يدخل النار، مع كونه مشركاً ضالاً في الدنيا. فهو لم يختبر في الدنيا فيكون اختباره يوم القيامة.

• إما لأنها لم تصل إليه على وجه يمكن له فهمها أصلاً

• وإما لأنه عاجز عن البحث عن حقيقتها. ويسميه بعض أهل العلم (جهلاً معجزاً) أو (جهلاً محضاً) أو (غفلة محضة)، وهم المقصودون بـ(أهل الفترة) عند كثير من أهل العلم.

<sup>١</sup> ينتسب إليه لأنه علم من الإسلام مجرد الاسم وبعض معانيه دون حقيقة التوحيد.

<sup>٢</sup> العبارة (العذر بالجهل في الشرك الأكبر) حصل فيها التباس شديد. فيظن أكثر الناس خطأ أن معنى عذر المشرك بالجهل هو أن يُحكم له بالإسلام. وهذا باطل، بل المعنى الصحيح ومراد أهل العلم السابقين بمسألة العذر بالجهل إنما هو (هل يعاقب المشرك قبل قيام الحجة ببلوغ الرسالة) ولم يقصد أحد منهم (هل يصير المشرك مسلماً قبل قيام الحجة)، فليُنبه!

وأن من نفى الكفر عن المشرك الجاهل من أهل العلم<sup>١</sup> إنما نفاه بهذا الاعتبار.

فإن قالوا (لا نكفر هذا المشرك أو الوثني أو العابد للصنم) قصدوا (لا نلحق به كل أحكام الكفر في الدنيا والآخرة وليس كافرا بكل اعتبار)، وهذه حقيقة مسألة العذر بالجهل، لا أن المشرك يتحوّل مسلما بجهله.

٤ - بيان أن البراءة من المشركين لا يتم الإسلام إلا بها وأنها نفى حقيقة الإسلام عن المشرك.

٥ - بيان الأعذار لمن سمى بعض المشركين مسلمين أو ألحق بهم بعض أحكام المسلمين.

ويكون بيان هذه المسائل في الأقسام التالية:

١ - بيان معنى الإسلام والأدلة على التفريق بين المسلم والمشرك.

٢ - إثبات عذر المشرك بالجهل.

٣ - بيان معنى الكفر بالطاغوت بشيء من التوسع.

٤ - شبهات مستخرجة من الكتاب والسنة وجوابها.

---

<sup>١</sup> هذا الكتاب أفرد للأدلة من الكتاب والسنة ومناقشتها. وذكرت في غير هذا الكتاب طرفا من أقوال أهل العلم الموافقة لما يقرّر في هذا الكتاب، ومن كلامهم المتشابه الذي يسيء فهمه كثير من الناس على سبيل ما ذكر هنا.

٥- البراءة من المشركين لا يتم الإسلام إلا بها.

٦- بيان الكفر والتكفير وإطلاقات العلماء المختلفة لهما وموانع التكفير وبعض الشبهات في هذا الباب.

٧- الأعذار الممكنة لمن أخطأ في شأن البراءة من المشركين والتحذير من الغلو في التكفير.

أسأل الله التوفيق والإعانة والهداية لي ولكل من يبحث عن الحق، وأن يجعل هذا الكتاب نافعاً للمسلمين وأن يجعل نياتنا خالصة لوجهه الكريم، آمين.

## باب: في بيان واقع الناس في هذه المسائل

قد انتشر اليوم اعتبار المشرك مسلماً انتشاراً واسعاً إلى درجة أن يتهم بالغلو من اعتبره مشركاً. والناس في ذلك على أقوال، فيما يلي ذكر أهمها:

• أن يقول (المشرك الذي لم تبلغه حقيقة رسالة الإسلام مع انتسابه إليه ومع الجهل بحقيقته فهو مسلم من كل وجه، يسمى مسلماً وتجري عليهم أحكام المسلمين في الدنيا والآخرة).

• أن يضم إليه أن عامة من ينتسب إلى الإسلام اليوم حتى في الأمصار جهال لم تقم عليهم حجة الرسل في مسائل التوحيد والشرك، وأنهم مسلمون جميعاً لما ذكر في القسم السابق. وهذا أسوأ درجات الضلال في هذه المسألة ومن أعظم التحريف لمقاصد هذا الدين الرئيسة.

وهذا يظنه أكثر من ضل في هذه المسألة اليوم ممن ينتسب إلى العلم ويتصدر للتدريس. وأما من ليس دارساً منهم فعامتهم عليه وهو أوسع هذه الأقوال انتشاراً.

• وهناك أقوال أخرى، لكنها إن وجدت فهي نادرة جداً. وهي مذكورة في آخر الكتاب.

## القسم الأول: بيان معنى الإسلام والأدلة على التفريق بين المسلم والمشرک

### ١- باب: معنى كلمة الإسلام

#### فصل: أهمية ألفاظ الشرع ولفظ الإسلام خاصة

إن الله تعالى سمى هذا الدين الإسلام. مجرد هذه التسمية لا بد أن تكون لها حكمة عظيمة، إذ جعل كلمة الإسلام الاسم الشامل لجميع الملة، وكل اسم استعمله الله تعالى لحكمة، فكيف بهذا الاسم؟ فَعَلِمَ بذلك أهمية معرفة معنى هذا الاسم للمسلم.

#### فصل: وصف النبي ﷺ الإسلام بأنه إفراد الله بالعبادة وترك الشرك

• أخرج البخاري عن أبي هريرة حديث جبريل، وفيه أن رسول الله ﷺ قال ((...الإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ...)).

فالإسلام هو عبادة الله وعدم الإشراك به. فمن لم يعبد الله كان مستكبرا ومن عبده وعبد معه غيره كان مشركا غير مسلم. ومعلوم أن ما ذكره بعد ذلك من الشرائع مع عظم شأنها فإنها تنبني على التوحيد. فمن صلى وصام وحج مع أنه لم يحقق التوحيد لا يقبل منه شيء من الأعمال. وبالمقابل فإنَّ مَنْ جهل الصلاة لعدم بلوغ النص في وجوبها إليه كان مسلما معذورا بجهله، بخلاف التوحيد، إذ كيف يكون محققا للإسلام من جهل الإسلام؟

• وفي حديث عبد الله بن عمر عن أبيه عند مسلم ((...وَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنْ  
الإِسْلَامِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ وَتَقِيَمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتُحْجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ  
سَبِيلًا قَالَ صَدَقْتَ...)).

فإنه لم يُرد أن تشهد أن لا معبود حق إلا الله وإن كنت تعبد اللات والعزى أثناء  
شهادتك واستمررت على عبادة الأوثان جهلا منك أن هذا ينافي معنى الشهادة. وهل  
يظن هذا إلا من جهل الإسلام بنفسه؟

أما كتاب الله تعالى فإنه يدور حول بيان التوحيد كُلُّهُ، فإنه رسالة الأنبياء وسبب إرسالهم  
وإنزال كتبهم عليهم السلام، وسيأتي بيان ذلك مفصلاً.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ...﴾ (الإسراء: ٢٣).

**فصل: في معنى الإله وشهادة الإسلام وأن مشركي قريش كانوا أعلم به من  
كثير من المنتسبين إلى الإسلام اليوم**

معنى لا إله إلا الله هو (لا معبود حق إلا الله)<sup>١</sup>، لأن الإله هو المعبود. وقد أساء كثير  
من الناس فهم معنى الإله والشهادة، وإنما ذلك لكثرة انشغالهم بالفلسفة المذمومة عن  
فهم كتاب الله على مراد الله. وحتى من كان قليل الفهم والتتبع لمعاني ألفاظ القرآن يعلم

<sup>١</sup> أو (لا معبود بحق إلا الله) على تفصيل ما يذكره أهل العلم عند الكلام على إعراب الشهادة  
ومعناها المفصل، لكن كل ذلك في معنى واحد.



أن معنى الإله هو المعبود وليس الخالق أو القادر على الاختراع فقط كما ظنه هؤلاء. قال تعالى:

• ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥)﴾ (ص).

هذا قول المشركين، وليس معناه أن محمدا جعل الخالقين خالقا واحدا. ومثله في قوله تعالى:

• ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨)﴾ (الأعراف).

• وكل الرسل قالوا لأقوامهم ما حكاها الله في سورة الأعراف:

﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (الأعراف: ٥٩ و ٦٥ و ٧٣ و ٨٥، وهود: ٥٠ و ٦١ و ٨٤، والمؤمنون: ٢٣ و ٣٢).

أمرهم بعبادة الله وحده وبين لهم أنه لا معبود بحق غيره.

• فأجابوا: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ (الأعراف: ٧٠)

أي: فهموا من لفظ الإله أنه المعبود. والقرآن مليء بمثل هذا.

فتبين أن المشركين من العرب فهموا معنى الشهادة تمام الفهم، لأنهم تعجبوا من محمد ﷺ أنه جعل الآلهة المعبودة عندهم معبودا واحدا، وهذا يدل قطعا على أنهم فهموا ما خاطبهم النبي ﷺ به، فعلموا معنى لا إله إلا الله.

## فصل: معنى سَلِمَ الذي هو أصل لفظ الإسلام في اللغة

الإسلام مصدر<sup>١</sup> الفعل أَسْلَمَ. وهذا الفعل مأخوذ من الجذر سَلِمَ.

يتلخص ما يُذكر في المعاجم في معنى سَلِمَ كما يلي:

- سَلِمَ مِنَ الْآفَاتِ وَالْعُيُوبِ يَسْلَمُ سَلَامًا وَسَلَامَةً أَي بَرِيءٌ.
- وَالسَّلَامُ وَالسَّلَامَةُ الْبَرَاءَةُ، وَالسَّلَامُ فِي الْأَصْلِ السَّلَامَةُ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلْجَنَّةِ دَارُ السَّلَامِ، لِأَنَّهَا دَارُ السَّلَامَةِ مِنَ الْآفَاتِ.
- سَلِمَ لَهُ كَذَا أَي خَلَصَ فَهُوَ سَالِمٌ وَسَلِيمٌ

## فصل: استعمال سَلِمَ في القرآن ومَثَلُ المسلم والمشرِك

وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ سَلِمَ الَّذِي هُوَ مَصْدَرُ سَلِمَ. قَالَ تَعَالَى:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا  
الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٢٩).

قال ابن منظور في هذه الآية:

---

<sup>١</sup> يقول النحويون المصدر هو اسم فيه معنى الفعل مع عدم دلالة على زمن معين.

﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾: وقُرى ﴿وَرَجُلًا سَالِمًا لِرَجُلٍ﴾... والمعنى أَنَّ مَنْ وَخَدَ اللَّهُ مَثْلَهُ مَثَلُ السَّالِمِ لِرَجُلٍ لَا يَشْرُكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ وَمَثَلُ الَّذِي أَشْرَكَ اللَّهَ مَثَلُ صَاحِبِ الشُّرَكَاءِ الْمُتَشَاكِسِينَ<sup>١</sup>.

وقال الطبري:

﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾، يقول: وَرَجُلًا خُلُوصًا لِرَجُلٍ يَعْنِي الْمُؤْمَنَ الْمُوَحَّدَ الَّذِي أَخْلَصَ عِبَادَتَهُ لِلَّهِ، لَا يَعْبُدُ غَيْرَهُ... السَّلَمُ مُصَدَّرٌ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: سَلِمَ فَلَانُ لِلَّهِ سَلَمًا بِمَعْنَى: خَلَصَ لَهُ خُلُوصًا...

الطبري يذكر هنا صراحة أن الرجل الأول في المثل مسلم موحد طهر جميع أعماله من الشرك، ليس له إله آخر ولا شريك.

فإن الله تعالى يضرب مثلاً للمسلم والمُشْرِك والفرق بينهما، ثم يؤكد هذا الفرق بقوله ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾.

وروى الطبري معنى الآية كما ذكره عن بعض السلف فقال:

(حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، في قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ قال... فإنما هذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ لِلْهَوَلَاءِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْآلِهَةَ، وَجَعَلُوا لَهَا فِي أَعْنَاقِهِمْ حَقُوقًا، فَضَرَبَهُ اللَّهُ مَثَلًا

<sup>١</sup> لسان العرب، مادة سلم.

لهم، وللذي يعبدُه وحده ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>١</sup>  
وفي قوله: ﴿وَرَجُلًا سَالِمًا لِرَجُلٍ﴾ يقول: ليس معه شرك (...).

ثم قال الطبري:

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول جلّ ثناؤه: وما يستوي هذا المشترك فيه، والذي هو مُنفردٌ ملكه لواحدٍ، بل أكثر هؤلاء المشركين بالله لا يعلمون أنهما لا يستويان، فهُمْ بِجَهْلِهِمْ بِذَلِكَ يَعْبُدُونَ آلِهَةً شَتَّى مِنْ دُونِ اللَّهِ).

مبحث: ما يلزم المخالف في هذه الآية

قد بيّن الله تعالى أن المسلم والمشرك ضدان، وذكر الفارق بينهما وهو فعل الشرك<sup>١</sup>. المسلم يتصف بالإخلاص بخلاف المشرك. إضافة إلى ذلك ذكر في الآية أن أكثر المشركين لا يعلمون حقيقة حالهم، كما بينه الطبري فيما سبق.

فالذين يمجّزون وجود مسلم مشرك بحجة أنه معذور بجهله بالإسلام، لا بد لهم من مخالفة الآية صراحة كما يلي:

<sup>١</sup> معلوم أن الأحكام لا يمكن أن تعلق بالباطن، إذ لا يمكن معرفة ما في باطن الإنسان. لذا لسنّا مأمورين بشق بطونهم. وبناء عليه يتصور أن شخصا ما يُعتبر مسلما في الظاهر مع أنه لم يفهم التوحيد في نفس الأمر ويفعل الشرك جهلا، لكن ما لم يُر هذا منه لم يمكن أن يحكم عليه به، فيبقى مسلما في الظاهر. وكذلك يمكن أن الشخص لم يقبل الإسلام في باطنه مع إظهاره له، وهذا هو المنافق. لكن المنافق الخالص يعتبر مسلما في الظاهر حتى يُثبت الدليل خلافه.

• على قولهم لا يمكن أن يشمل هذا المثلُ المشركَ الجاهل، بينما يجعله الله تعالى منه بوضوح. المشرك - عليم أم جهل - لا يعبد الله وحده، فلا يمكن أن يكون مسلماً مخلصاً لله.

• أكثر المشركين يجهلون هذه الحقيقة ويقعون في الشرك بسبب هذا الجهل كما بيّنه الطبري، لكن هؤلاء المشركين الجاهل يجب على هذا القول الباطل أن يصيروا بجهلهم مسلمين.

• قولهم يقتضي أن لا يكون هناك فرق بين المشرك الجاهل والمسلم وأنهما يستويان، مع أن الله تعالى يصرح في الآية أن مثل هذا المشرك تماماً ليس مسلماً حتماً، بل أنه ضد المسلم.

• ثم تجب عليهم تخطئة جميع أهل العلم مثل الطبري، لأن قول هؤلاء العلماء لا يحتمل معنى آخر، فلا يمكن أنهم تصوروا وجود أناس هم مشركون ومسلمون في آن واحد، بل من قرأ كلامهم علم أن مثل هذا لم يخطر على بالهم أصلاً. وهذا يبيّن أن كون التوحيد أصل دين الإسلام وكون الإسلام يستحيل مع عدم تحققه لوجود الشرك، كان عندهم من أوضح الأمور. حتى أهل البدعة ما خطر ببالهم أن يجعلوا مشركاً ما مسلماً.

وبهذا تكون الآية حجة قاطعة في هذا الأمر، وإن لم تفرد هنا في فصل خاص.

### مبحث: معنى الفعل أسْلَمَ

• أسْلَمَ أي انقاد واستسلم

• ودخل في السِّلْم (بالفتح وبالكسر)

- أسلم الشيء إليه أي دفعه
- أسلم أمره له وإليه أي فوضه
- أسلم الشيء مثل سلمه له بمعنى خلصه له أي جعله سالماً له وخالصاً فإذا أسلمه له وإليه جعله سالماً له وخالصاً

وكما هو مبين في كتب علم الصرف، يجوز أن تزداد في أول الفعل الثلاثي همزة. وهذا التغيير في بنية الكلمة يؤدي إلى إضافة معنى الجعل إلى الفعل، مثل جلس، فإن قيل أجلسه فالمراد جعله يجلس.

وهكذا استعملت العرب أسلم بمعنى جعله يسلم أي جعله سالماً، فيكون هناك تطابق في البنية والمعنى بين سلم وأسلم وبين خلص وأخلص. العرب تقول إذا طهر فلان الماء أو الذهب أو نحوه أخلص الماء يخلصه. فالإسلام هو الإخلاص، لا وجود للإسلام دون إخلاص. وبذلك يظهر التناقض عند من يزعم وجود مسلم يفعل الشرك الأكبر ويعبد إلهاً آخر من دون الله، إذ معنى ذلك أنه مخلص غير مخلص في آن واحد، أي من يقول هذا يفترض مسلماً بلا إسلام.

أما الإخلاص فالمراد به تطهير الأفعال من الشرك كما تبين مما سبق في هذا الكتاب ومما يأتي. فإن الرسل ما بعثوا إلا لهذا، وبعثوا إلى أقوام أشركوا بالله تعالى وما أخلصوا له.

ولما تقدم من بيان معنى كلمة الإسلام وأنه الإخلاص قال أهل العلم كثيراً بأن التوحيد هو إخلاص العبادة لله، ولهذا ورد تسمية الشهادة كلمة التوحيد وكلمة الإخلاص في السنة وكلام أهل العلم.

كما روى أحمد في مسنده ((عَنِ ابْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبَزَى عَنْ أَبِيهِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ وَعَلَى كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)).

### فصل: بيان كلمة الإسلام في القرآن

قد اتضح أن الدين كله ينبغي على تطهير الأعمال من الشرك الأكبر، وقد سمي الدين كله باسم يدل على هذا المعنى دلالة صريحة. وما قيل في المصدر يقال في جميع المشتقات لأنها تحمل المعنى نفسه. فالمتبع لهذا الدين اسمه مسلم لأنه محقق للإسلام أي الإخلاص. ولا شك أن بيان هذا المعنى لا بد أن يكون ظاهرا متكررا في كتاب الله لأهميته، لذلك نجد في القرآن عدة مواضع تبين معنى الإسلام وفيها تفصيل المراد بالشيء الذي يُسلمه المسلم ويخلصه المخلص ما هو، وهذا من تفسير القرآن بالقرآن.

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١)﴾ (البقرة).

- هؤلاء من اليهود والنصارى ادّعوا أن الجنة مخصوصة لهم.
- فادعت كل طائفة منهما أن المسلم الذي يدخله الله جنته لا يكون إلا منهم.
- لكن الله تعالى يكذبهم، فإنما ذلك من أمانيتهم التي ذكر الله بعضها في مواضع من كتابه.
- ثم يقرر الله تعالى المنهج الصحيح الوحيد لمعرفة الحق وهو إثبات الدعوى بالدليل.

• هذا الدليل لا يمكن أن يكون في هذا الأمر من غير الله, لأنهم تكلموا فيمن يدخله الله جنته دون غيره, وهذا لا يعلم إلا من عند الله تعالى. لكن الله تعالى يكذب دعواهم هذه ويبين أنهم افترؤا ذلك على الله بغير علم.

ثم يبين الله تعالى من الذي يدخل الجنة حقيقة بخلاف دعواهم, فقال:

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ١١٢).

- أي بلى هناك من يدخل الجنة وله أجره عند ربه.
- وهو المسلم وجهه لله. الله تعالى يخبر أن كل من اتصف بهذا نال رضاه, وفي ذلك بيان معنى كلمة الإسلام.
- أما الأجر المذكور في الآية فهو الجنة ورضوان الله بلا شك, لأن أهل الكتاب ادعوا ذلك لأنفسهم كما سبق.
- هؤلاء المسلمون لا خوف عليهم مما يأتي ولا يحزنون على ما مضى.

### مبحث: إسلام الوجه هو الإخلاص

قال الطبري رحمه الله تعالى في الآية المذكورة:

(كما حدثني المشي قال، حدثنا إسحاق قال، حدثنا ابن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾، يقول أخلص لله).

وهكذا هو مذكور في جميع التفاسير المعتمدة، فيقولون (أخلص عبادته ودينه وطاعته لله)



ثم قال الطبري:

(وكما قال زيد بن عمرو بن نفيل

وأسلمت وجهي لمن أسلمت... له المُنْزُ تحملُ عَذْباً زُلّالاً

يعني بذلك استسلمت لطاعة من استسلم لطاعته المُنْزُ وانقادت له، وخصَّ الله جل ثناؤه بالخبر عَمَّنْ أَخْبَرَ عنه بقوله ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ بإسلام وجهه له دون سائر جوارحه لأنَّ أكرمَ أعضاء ابنِ آدَمَ وجوارحه وجهه وهو أعظمها عليه حُرمةٌ وحقاً فإذا خضعَ لشيءٍ وجهه الذي هو أكرمُ أجزاءِ جسده عليه فغيره من أجزاءِ جسده أخرى أن يكون أخضعَ له، ولذلك تَذَكَّرَ العربُ في مَنْطِقِهَا الخَبَرَ عن الشيءِ فَتُضِيفُهُ إلى وجهه وهي تعني بذلك نفسَ الشيءِ وعينه... وتأويلُ الكلامِ (بلى مَنْ أخلصَ طاعتهُ لله وعبادتهُ له، مُحسناً في فعله ذلك)).

مبحث: شعر زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه

البيت المذكور من شعر زيد بن عمرو تذكر معه أبيات أخرى في بعض كتب التفسير والسيرة:

(وأسلمت وجهي لمن أسلمت... له الأرضُ تحملُ صَخْرًا ثِقَالاً

دَحَاها فَلَمَّا اسْتَوَتْ شَدَّهَا... جميعاً وأرسي عليها الجبالا

وأسلمت وجهي لمن أسلمت... له المُنْزُ تحملُ عَذْباً زُلّالاً

إذا هي سِيقَتْ إلى بلدةٍ... أطاعت فصَبَّتْ عليها سِجَالاً

## وأسلمت وجهي لمن أسلمت... له الريح تُصَرَفُ حالاً فَحَالاً

ففي كل هذه الآيات قال أسلمت، وهذا مهم لأن زيد بن عمرو مات قبل نبوة محمد ﷺ مع أن النبي ﷺ تعرّف إليه وشهد له بالإيمان والجنة. فهذه الآيات من شعر الحنفاء في الجاهلية، قبل الإسلام الخاص. أما الإسلام العام الذي هو التوحيد ورسالة الأنبياء كلهم فإنه كان موجودا قبل البعثة وإن قلّ.

فزيد بن عمرو بن نفيل كان من الحنفاء الذين انتسبوا إلى إبراهيم عليه السلام، كما أن المشركين انتسبوا إليه. لكن الحنفاء عرفوا التوحيد وعملوا به فتهروا من عبادة الأصنام ومن المشركين، ذلك مع أنهم لم تكن عندهم آية واحدة من آيات كتاب الله!

ثم يتبين من كلامه معنى كلمة الإسلام في لغة العرب، خاصة لأن هذا الشعر قيل قبل زمن الإسلام.

### فصل: زيادة بيان معنى الإسلام وأن المشركين المخاطبين به فهموا معناه

• أخرج البخاري ووافقه عليه مسلم عن مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ ((كُنْتُ رِذْفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ غَفِيرٌ فَقَالَ يَا مُعَاذُ هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يُعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أَبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ قَالَ لَا تُبَشِّرُهُمْ فَيَتَكَلَّبُوا)) وفي رواية لمسلم ((قَالَ أَنْ يُعْبَدَ اللَّهُ وَلَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْئًا)).

• وعند مسلم ((قَالَ عَمْرُو بْنُ عَبْسَةَ السُّلَمِيُّ كُنْتُ وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلَالَةٍ وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ فَسَمِعْتُ بِرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ

أَخْبَارًا فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُسْتَخْفِيًا جُرْءَاءُ عَلَيْهِ قَوْمُهُ فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ فَقُلْتُ لَهُ مَا أَنْتَ قَالَ أَنَا نَبِيٌّ فَقُلْتُ وَمَا نَبِيٌّ قَالَ أَرْسَلَنِي اللَّهُ فَقُلْتُ وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ قَالَ أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ وَأَنْ يُوحِدَ اللَّهُ لَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ قُلْتُ لَهُ فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا قَالَ حُرٌّ وَعَبْدٌ قَالَ وَمَعَهُ يَوْمِيذٍ أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ فَقُلْتُ إِنِّي مُتَّبِعُكَ)) فالخنفاء كانوا على الإسلام العام ملة إبراهيم. تدبر، هؤلاء لم تكن عندهم آية من القرآن. إنهم عرفوا دين الإسلام وأنه إخلاص العبادة لله وحده من بقايا ملة إبراهيم. فما بأناس اليوم لا يعرفون دين الله والقرآن يُتلى عليهم في الليل والنهار!؟

- والمشركون من العرب كانوا يعلمون معنى الشهادة تماما ولذلك أبوا أن يقولوها. والأدلة على ذلك من القرآن والسنة وسيرة النبي ﷺ كثيرة جدا، ويذكر شيء منها في ما يأتي.
- بل العجم كانوا يعرفون معناها. ففي البخاري في آخر حديث في كتاب بدء الوحي قال هرقل لأبي سفيان: ((قَالَ مَاذَا يَأْمُرُكُمْ قُلْتُ يَقُولُ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَاتْرَكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّدَقِ وَالْعَفَافِ وَالصَّلَاةِ)) ثم فسّر جوابه ((وَسَأَلْتُكَ بِمَا يَأْمُرُكُمْ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقِ وَالْعَفَافِ)) فإن هرقل كان يعلم تماما أنَّ هذا الدين إن كان هو دين الله على الحقيقة، فلا بدَّ أنه دينٌ توحيد العبادة وأنَّ محمدا إن كان نبيا حقا، فلا بدَّ أن يأمرَ بدين الله، بدين التوحيد في العبادة. وكذلك أبو سفيان عليم تماما ماذا يريد النبي ﷺ منهم، وما هو الإسلام. فلو سأل هرقل عن أحد يدعي النبوة (يم يأمركم) فيقول (يأمرنا بالصلاة، فلو عبدنا الأوثان، وقمنا بصلاته التي يأمرنا بها لكُنَّا على دينه). لو قيل ذلك لهرقل لعلم قطعاً أنَّ هذا المدَّعي من أعظم

المفترين على الله تعالى وليس نبيا في شيء. ولذلك جزم هرقل أن الذي سأل عنه هو النبي حقا فقال ((فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلَصُ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَعَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ ... فَقَالَ هِرَقْلُ هَذَا مُلْكُ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَدْ ظَهَرَ ثُمَّ كَتَبَ هِرَقْلُ إِلَى صَاحِبٍ لَهُ بِرُومِيَّةٍ وَكَانَ نَظِيرُهُ فِي الْعِلْمِ وَسَارَ هِرَقْلُ إِلَى حِمَصَ فَلَمْ يَرَمْ حِمَصَ حَتَّى أَتَاهُ كِتَابٌ مِنْ صَاحِبِهِ يُوَافِقُ رَأْيَ هِرَقْلَ عَلَى خُرُوجِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَّهُ نَبِيٌّ)) فعلم هرقل صدق النبي ﷺ إلا أنه لم يعمل بهذا العلم وترك اتباع النبي ﷺ لما رأى أن أتباعه لا يوافقونه عليه. وآثر الدنيا على الآخرة بإيثاره بقاء ملكه على قبول الإسلام ((فَإِذَا هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسَكِرَةِ لَهُ بِحِمَصَ ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فَعُلِّقَتْ ثُمَّ أُطْلِعَ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ الرُّومِ هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلَاحِ وَالرُّشْدِ وَأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ فَتُبَايَعُوا هَذَا النَّبِيَّ فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمْرِ الْوَحْشِ إِلَى الْأَبْوَابِ فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفَرَتَهُمْ وَأَيَسَ مِنَ الْإِيمَانِ قَالَ رُدُّوهُمْ عَلَيَّ وَقَالَ إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي إِنِّهَا أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ فَقَدْ رَأَيْتُ فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنٍ هِرَقْلَ)).<sup>١</sup>

<sup>١</sup> وفي هذا الحديث أيضا ردُّ على بعض غلاة المرجئة الذين يظنون أن مجرد معرفة الحق يكفي لصحة الإسلام. إن صحت تسميتهم مرجئة فإنهم فاقوا في الضلال جميع ما قاله أصناف المرجئة في التاريخ بما فيهم الجهمية الذين أكفرهم علماء السلف، اللهم إلا أن يجعل منهم قسم جديد من أقسام المرجئة قال بقول لم يسبقه إليه سائر الأصناف، والعياذ بالله.

فإذا فهمت هذا رحمك الله فهمت أن أكثر الخلق اليوم لا يعلمون ما هو الإسلام بخلاف المشركين والنصارى المذكورين وغيرهم في زمن النبي ﷺ، فإنهم فهموا معناها تماماً لكنهم لم يعملوا به. فبئس القوم أبو جهل أعلم بلا إله إلا الله منهم. وقد يقال هنا (إن هرقل نفسه كان على الشرك، وربما لم يفهم ما يدعوا إليه محمد ﷺ حقيقة)، وهذا بحث آخر. لكن من عرف قصته يعلم أن هرقل فهم تماماً معنى ما دعا النبي ﷺ إليه وأنه لم يردّه لعدم موافقته عليه علماً. وحتى لو قيل إنه كان على الشرك من قبل فظاهر الحديث أنه لما سمع رسالة محمد علم أنها دين الله والحق المبين وأنها النهي عن كل شرك. وأوضح من ذلك ما ذكرت من شأن أبي سفيان ومشركي قريش، فإنهم كانوا يعلمون تماماً ما هو الإسلام وكذلك قصة النجاشي الذي أسلم لا شك أنه فهم تماماً أن الإسلام هو الخلو من الشرك وهكذا.

### مبحث: الإسلام العام دين الأنبياء جميعاً

وهذا كثير جداً في القرآن، ويأتي: إما تصريحاً باسم الإسلام:

- كما قال نوح عليه السلام ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢)﴾ (يونس).
- ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤)﴾ (يونس).
- ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧)﴾ (آل عمران).

• ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢)﴾ (آل عمران).

• ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)﴾ (النمل).

• ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنَا وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِنَا ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤)﴾ (المائدة).

فكان جميع الأنبياء مسلمين.

• وأمر الله نبينا ﷺ وبذلك ضمنا المؤمنين جميعا ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤)﴾ (آل عمران).

• ثم أمر المؤمنين تصريحاً ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦)﴾ (البقرة).

فبيّن في الآيتين السابقتين أيضاً أن الإسلام دين جميع الأنبياء السابقين عليهم السلام.

مبحث: وأحيانا يأتي أن جميع الأنبياء أمروا بلا إله إلا الله أو بعبادة الله وحده أو بترك الشرك أو يأتي ذلك مجموعا، وكل ذلك هو الإسلام

• ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)﴾ (الأنبياء).

• ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (٣٦)﴾ (النحل).

• ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)﴾ (آل عمران).

مبحث: دين الله هو الإسلام، لا يقبل غيره

• ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩)﴾ (آل عمران).

• ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣)﴾ (آل عمران).

• ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)﴾ (آل عمران).

مبحث: الإسلام هو ملة إبراهيم وهو الحنيفية دين الحنفاء

• ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤) وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّكُمْ رَبُّنَا وَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩)﴾ (البقرة).



- ﴿وَمَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)﴾ (آل عمران).
- ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥)﴾ (آل عمران).
- ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥)﴾ (النساء).
- ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)﴾ (الأنعام).
- ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤)﴾ (الأنعام).
- ﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦)﴾ (يونس).

- ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣)﴾ (النحل).
- ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١)﴾ (الحج).
- ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢)﴾ (الروم).
- ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥)﴾ (البينة).

مبحث: دين الله هو دين الفطرة فتمكن معرفته بالفطرة والعقل في الأصل ومعنى الميثاق الذي أخذه الله على الناس

- ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ (الروم), فأمر الله بالدين وبين أنه الحنيفية وأنه الفطرة وأنه خلق جميع الناس عليها.

• أخرج مسلم ((عَنْ عِيَّاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أَعْلَمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ

عَبْدًا حَلَالٌ وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي خُفَاءَ كُلِّهِمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَخَلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَّتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَقَالَ إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيكَ وَأَبْتَلِي بِكَ وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ تَفْرُوهُ نَائِمًا وَيَقْظَانُ...)).

• وفي البخاري عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ((كَانَ يُحَدِّثُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ أَوْ يَنْصَرَانِهِ أَوْ يُمَجَّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بِبَهِيمَةٍ جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا الْآيَةَ)).

وفي رواية ((هَلْ تَجِدُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجَدَعُونَهَا)).

فكل مولود يولد على الإسلام على دين الفطرة. ويدل الحديث على ذلك بوضوح ويدل عليه ١- ذكر أبي هريرة لهذه الآية التي ذكرتها ومعناها في أول الباب، فهذا استدلال منه على هذا المعنى، وفي رواية لمسلم ((ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ وَاقْرَأُوا إِنَّ شِئْنَهُمْ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)). ٢- أنه قال يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه وعند مسلم ((يُشْرِكَانَهُ)) ولم يقل أو يسلمانه، فعلم أنه لا حاجة أن يجعله على الإسلام بترتيبهما له إذ كان مسلماً بداية. ٣- وكذلك فالمذكور كله دين الشرك، فإن كان الأمر أنهما دائماً يجعلانه على ملة الشرك فإنه كان قبل ذلك على التوحيد لأن الشرك نقيض الإسلام، فمن لم يكن مشركاً كان مسلماً، إما هذا وإما هذا لا ثالث لهما. كل ذلك مع ملاحظة أن الأبوين إنما هما عبارة عن كل ما يؤثر في إفساد الفطرة وتحريفها. ٤- ثم نجد الإمام

مسلمًا يذكر ((مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُوْلَدُ إِلَّا وَهُوَ عَلَى الْمِلَّةِ)) وَفِي رِوَايَةٍ ((... إِلَّا عَلَى هَذِهِ الْمِلَّةِ حَتَّى يُبَيِّنَ عَنْهُ لِسَانُهُ)) وَفِي رِوَايَةٍ ((... لَيْسَ مِنْ مَوْلُودٍ يُوْلَدُ إِلَّا عَلَى هَذِهِ الْفِطْرَةِ حَتَّى يُعَبِّرَ عَنْهُ لِسَانُهُ)). فتبين أن المراد بالإسلام هنا هو ما ركزه الله تعالى في الفطر من الاستسلام لخالقه والتهيؤ لقبول التوحيد والسلامة من معارضته. وليس المراد أنه حقق ما بعث الله به المرسلين علما وعملا، لقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨) (النحل).

• ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤)﴾ (الأعراف).

وروى أحمد ((حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ حَدَّثَنَا جَرِيرٌ يَعْنِي ابْنَ حَازِمٍ عَنْ كُثُومِ بْنِ جَبْرِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ أَخَذَ اللَّهُ الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ بِنِعْمَانٍ يَعْنِي عَرَفَةَ فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَاهَا فَشَرَّهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالدَّرِّ ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قَبْلًا قَالَ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ)).

وروى أحمد ((حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ الزُّبَالِيُّ حَدَّثَنَا الْمُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ رُفَيْعِ أَبِي الْعَالِيَةِ عَنْ أَبِي بِنِ

كَغَبٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ  
وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمُ الْآيَةَ قَالَ جَمَعَهُمْ فَجَعَلَهُمْ أَرْوَاحًا ثُمَّ صَوَّرَهُمْ فَاَسْتَنْطَقَهُمْ  
فَتَكَلَّمُوا ثُمَّ أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالَ  
فَإِنِّي أُشْهِدُ عَلَيْكُمْ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ وَأَشْهِدُ عَلَيْكُمْ آبَاكُمْ آدَمَ عَلَيْهِ  
السَّلَامُ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمْ نَعْلَمْ بِهَذَا ااعلموا أَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرِي وَلَا رَبَّ غَيْرِي فَلَا  
تُشْرِكُوا بِي شَيْئًا وَإِنِّي سَأُرْسِلُ إِلَيْكُمْ رُسُلِي يُذَكِّرُونَكُمْ عَهْدِي وَمِيثَاقِي وَأُنْزِلُ عَلَيْكُمْ  
كِتَابِي قَالُوا شَهِدْنَا بِأَنَّكَ رَبُّنَا وَإِلَهُنَا لَا رَبَّ لَنَا غَيْرَكَ فَأَقْرَأُوا بِذَلِكَ وَرَفَعَ عَلَيْهِمْ آدَمَ  
يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ فَرَأَى الْغَنِيَّ وَالْفَقِيرَ وَحَسَنَ الصُّورَةَ وَدُونَ ذَلِكَ فَقَالَ رَبِّ لَوْلَا سَوَّيْتَ  
بَيْنَ عِبَادِكَ قَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ أَشْكُرَ وَرَأَى الْأَنْبِيَاءَ فِيهِمْ مِثْلَ السُّرُجِ عَلَيْهِمُ النُّورُ  
خُصُّوا بِمِيثَاقٍ آخَرَ فِي الرِّسَالَةِ وَالتَّبُوءَةِ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ  
مِيثَاقَهُمْ إِلَى قَوْلِهِ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ كَانَ فِي تِلْكَ الْأَرْوَاحِ فَأَرْسَلَهُ إِلَى مَرْيَمَ فَحَدَّثَتْ  
عَنْ أَبِي أَنَّهُ دَخَلَ مِنْ فِيهَا)).

حديث أحمد هذا جاء من طرق كثيرة لكنه مختصر في بعضها. أما مفصلاً كالذي سقته  
عن أحمد فقد أخرجه الترمذي ومالك في الموطأ كلاهما عن عمر بن الخطاب رضي الله  
عنه يرفعه إلى النبي ﷺ، لكن إسناد حديث أحمد أحسنها.

وروى أبو داود ((حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ الْمِنْهَالِ قَالَ سَمِعْتُ  
حَمَادَ بْنَ سَلَمَةَ يُفَسِّرُ حَدِيثَ كُلِّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ قَالَ هَذَا عِنْدَنَا حَيْثُ أَخَذَ  
اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ حَيْثُ قَالَ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى)).

فتبين أن العبد مفطور على الإيمان من أول أمره، وأنه يعرف ربه بفطرته السليمة. فيعرف أنه خالقه وخالق كل شيء وأنه يتصف بصفات الإلهية فيعرف عظمته وأنه وحيد فريد في هذا لا يماثله شيء فيه، وأن هذه الصفات تقتضي أنه وحده يستحق العبادة، فلا يعبد إلا هو، وإفراده بالعبادة هو الحق والعدل والصواب، والإشراك به في عبادته هو أظلم الظلم، وأن من فعله ظالم مبطل وأنه على الباطل أي ليس على التوحيد الحق بل على طريق مخالف ودين آخر مناقض له.

كل ذلك يمكن أن يعرفه من فطرته وعقله إذا كان سليما، فإذا جاء الأنبياء بتذكير ذلك يجب عليه الإيمان وجوبا يترتب عليه الثواب والعقاب. فأقل ما يدخل به الإسلام هو شهادة التوحيد علما وعملا. والدليل على ذلك آية الميثاق السابقة فإنها واضحة فيه. فمن قام بهذه الأمور فإنه أتى بما عليه وبما طالبه ربه به بقوله **﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾** وقوله **﴿اعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرِي وَلَا رَبَّ غَيْرِي فَلَا تُشْرِكُوا بِي شَيْئًا﴾**.

### فصل: الإسلام هو الإخلاص والإخلاص لا يوجد في أحد من المشركين

ثبت أن الإسلام هو الإخلاص وأن المسلم هو المخلص، فمن لم يحققه ليس على الإسلام حتما. فمعنى كلمة (مسلم) هو أن هذا الشخص لا يعبد إلا الله، ولذلك جعل أهل العلم الإخلاص شرطا من شروط الشهادة، وإذا انتفى الشرط انتفى الإسلام بلا شك.

فهدى الله الذين يجوزون مشركا يكون مسلما، فعندهم يجوز أن يكون هناك مسلم بلا إخلاص ومسلم بلا إسلام. إنه لتناقض صارخ، والسؤال هو كيف يمكن أن يعلم من صرح بهذا معنى الشهادة حقيقة؟

وفي هذا الأمر مشكلة كثير من الناس اليوم، أنهم يتصورون مسلما بلا إخلاص ولا إسلام. ذلك لأنهم لا يعلمون أن الإسلام إنما هو عبادة الله وحده لا شريك له. وحقيقة قولهم أن معنى الإسلام هو الانتساب إليه، فيكون كل من يدعي الإسلام مسلما مهما قال ومهما فعل. وهكذا يصير الإسلام عندهم اسما لا حقيقة له. كمثل الأعمى يدعي أنه مبصر، فإذا أناس يقولون إننا نعلم أنه أعمى لكنه مبصر لمجرد ادعاءه. فماذا يُفهم من قولهم هذا إلا أنهم لا يعرفون معنى البصر والعمى أو أنهم يعرفون معناها ويصرون على قولهم الباطل عنادا؟

على هذا القول يمكن أن يكون الشخص مشركا غير مشرك، بشرط أنه كان جاهلا بحقيقة الإسلام ومنتسبا للإسلام، فيصير عندهم مسلما معذورا بالجهل! وإن كان هذا أمرا يكاد أن لا يصدق، لكنه اليوم اعتقاد كثير من الناس.

فكلمة (المسلم) تحمل معنى معينا يتضمن أفعالا وصفات لا يأتي بها أحد من المشركين البتة. وهذا ليس بغريب إذ كان الإسلام نقيض الشرك، ولذلك يستحيل أن يجتمع الشرك والإسلام في الشخص الواحد في آن واحد. رجل لا يعبد إلا الله لا يمكن بحال أن يكون رجلا يعبد غير الله.

### فصل: الإسلام هو الحنيفية والمشرک ليس حنيفا

لما خرج زيد بن عمرو باحثا عن الدين لقي عالما يهوديا وعالما نصرانيا، فسأل كل واحد منهما، فدلّه كل واحد منهما على الحنيفية.

أخرج البخاري ((عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ زَيْدَ بْنَ عَمْرٍو بْنَ نُفَيْلٍ خَرَجَ إِلَى الشَّامِ يَسْأَلُ عَنِ الدِّينِ وَيَتَّبِعُهُ فَلَقِيَ عَالِمًا مِنَ الْيَهُودِ فَسَأَلَهُ عَنْ دِينِهِمْ فَقَالَ إِنِّي لَعَلِّي أَنْ أَدِينَ

دِينَكُمْ فَأَخْبِرْنِي فَقَالَ لَا تَكُونُ عَلَى دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيكَ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ قَالَ زَيْدٌ مَا أَفِرُّ إِلَّا مِنْ غَضَبِ اللَّهِ وَلَا أَحْمِلُ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ شَيْئًا أَبَدًا وَأَنْتَى أَسْتَطِيعُهُ فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى غَيْرِهِ قَالَ مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا قَالَ زَيْدٌ وَمَا الْحَنِيفُ قَالَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَا يَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ فَخَرَجَ زَيْدٌ فَلَقِيَ عَالِمًا مِنَ النَّصَارَى فَذَكَرَ مِثْلَهُ فَقَالَ لَنْ تَكُونَ عَلَى دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيكَ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ قَالَ مَا أَفِرُّ إِلَّا مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَلَا أَحْمِلُ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَلَا مِنْ غَضَبِهِ شَيْئًا أَبَدًا وَأَنْتَى أَسْتَطِيعُ فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى غَيْرِهِ قَالَ مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا قَالَ وَمَا الْحَنِيفُ قَالَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَا يَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ فَلَمَّا رَأَى زَيْدٌ قَوْلَهُمْ فِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَرَجَ فَلَمَّا بَرَزَ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ وَقَالَ اللَّيْثُ كَتَبَ إِلَيَّ هِشَامٌ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَتْ رَأَيْتُ زَيْدَ بْنَ عَمْرٍو بْنَ نَفِيلٍ قَائِمًا مُسْنِدًا ظَهَرَهُ إِلَى الْكَعْبَةِ يَقُولُ يَا مَعَاشِرَ قُرَيْشٍ وَاللَّهِ مَا مِنْكُمْ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ غَيْرِي وَكَانَ يُحْيِي الْمَوْتُودَةَ يَقُولُ لِلرَّجُلِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَ ابْنَتَهُ لَا تَقْتُلْهَا أَنَا أَكْفِيكَهَا مَوْتَهَا فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا تَرَعَرَعَتْ قَالَ لِأَبِيهَا إِنْ شِئْتَ دَفَعْتُهَا إِلَيْكَ وَإِنْ شِئْتَ كَفَيْتُكَ مَوْتَهَا)).



فَمَنْ فهِمَ معنى الشهادة عرف ما فهِمَهُ الحنيف مِنْ هذا الذي بلغه من الرسالة, وليس بين يديه آية واحدة من القرآن! فثبت أن هذا هو أصل الدين, لأن الرجل من أهل الفترة الذي لم يبلغه إلا الإسلام العامّ أي معنى لا إله إلا الله عرف ذلك!<sup>١</sup>

فالحنيف هو من لا يعبد إلا الله, فلا يمكن أن يكون هناك حنيف مشرك كما لا يوجد مسلم مشرك أو مخلص مشرك.

وفي كثير من آيات القرآن جاء بيان أن الإسلام هو الحنيفية وأن كل مسلم حنيف:

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥)﴾ (البينة).

• يخبر الله تعالى أنهم ما أمروا إلا بالتوحيد لأنه أساس الدين, ولا شك أن ما ذكر بعده من الشرائع مع عظم شأنه لا يستوي هو والتوحيد. فبداية الآية المراد بها التوحيد أولاً, ذلك لما بُيِّنَ من قبل من أنّ الشرائع منبئية عليه, ولأنها شرعت بعد التوحيد بفترة, ولأن

---

<sup>١</sup> أما ما يزيد على هذا القدر, فإنه ليس من أصل الدين الذي لا بد منه لتحقيق الإسلام, فمثل هذه الأمور لا تثبت إلا بالسمع, وأنى لهؤلاء الحنفاء الدليل عليه إن لم يسمعه من الخبر الثابت عن الله ورسوله.

أي حتى لو أمكن أن يعلم المرء شيئاً ما بالنظر والاستدلال, بل حتى لو أمكن ذلك بأدنى نظر, ليس معناه أن يكون واجبا عليه وجوبا شرعيا حتى يأتي النص الذي ذكر فيه هذا الأمر صريحا. وهذا أصل عظيم عند أهل السنة والجماعة يفارقون به أهل البدعة المفتونين بالفلسفة.

من جهلها قبل نزولها أو بعده جهلاً معتبراً يكون مسلماً معذوراً بجهله بخلاف من جهل الإسلام نفسه.

• الله تعالى يؤكد هذا الأمر ويبين أن معنى أن **﴿يَعْبُدُوا اللَّهَ﴾** هو **﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾**، وفقاً لما سبق من أن الإسلام هو الإخلاص.

• ثم يزيد الله الأمر بياناً ويبين مرة أخرى أن معنى أن **﴿يَعْبُدُوا اللَّهَ﴾** هو **﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾** أي **﴿حُفَاءً﴾**.

• وذلك هو الإسلام، **﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾**.

فهذه الآية كذلك دليل مستقل فيما نحن فيه، وإن لم تذكر في فصل خاص، لأنها تناقض قول من يجعل بعض المشركين مسلمين من عدة جهات.

وقال تعالى: **﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٦٧)** (آل عمران).

في هذه الآية ما قيل في السابقة، ذكرت فيها ثلاثة أمور كلها في معنى، مسلمٌ وحنيفٌ وما كان من المشركين.

### فصل: الإسلام هو ملة إبراهيم والمشرک مخالف لأساسها

ظهر من الآيات السابقة أن الإسلام هو ملة إبراهيم عليه السلام. وملة إبراهيم معناها عبادة الله وحده وهي الإسلام العام الذي بُعث به جميع الأنبياء والمرسلين. لذلك يكون واضحاً معلوماً أننا مأمورون باتباع ملة إبراهيم، ومع ذلك قد أكد الله هذا الأمر في مواضع من كتابه فقال:

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣)﴾  
(النحل).

فثبت أن التوحيد ملة إبراهيم، والمشرک ليس له نصيب منها.

**مبحث: لو كان الإسلام مجرد الانتساب إليه لكان عباد الأصنام مسلمين**

لو أمكن أن يكون المرء على هذا الدين مجرد انتسابه إليه مع مخالفته لحقيقته لكان مشركو العرب على ملة إبراهيم، لأنهم انتسبوا إليها، وكثير منهم كانوا جهالاً بمناقضة ما هم عليه لدين إبراهيم عليه السلام.

لكن هؤلاء كانوا مشركين بإجماع المسلمين، وما كانوا مسلمين لمجرد انتسابهم وجهلهم. وكذلك الأمر اليوم عند الذين ينتسبون إلى دين محمد ﷺ مع وقوعهم في الشرك ومناقضتهم لحقيقة دين محمد ﷺ. فإنهم لا يصيرون جهلهم وانتسابهم إلى دين الإسلام مسلمين. ومن فرق بين أتباع محمد وأتباع غيره من الأنبياء في ذلك فقد فرق بين المتماثلين دون أي دليل وخالف العقلاء، إذ العلة التي جعلت كلهم مشركين واحدة وهي شركهم بغض النظر عن النبي أو الشريعة التي انتسبوا إليها.

## فصل: الإسلام هو الكفر بالطاغوت والمشرک لا يحقق ذلك

المسلم لا بد أن يتبرأ من كل ما عبد من دون الله أي لا بد من أن يكفر بالطاغوت<sup>١</sup>. لذلك جعل أهل العلم الكفر بالطاغوت شرطا من شروط لا إله إلا الله. المشرک لم يحقق الكفر بالطاغوت لأنه يعبد الكفر به هو ترك عبادته والكفر بها، فمن المحال أن يُدعى أن إنسانا ما عابد لله وحده لا شريك له ومع ذلك لم يترك عبادة المعبودات من دون الله. ويظهر هنا مرة أخرى أنه لا تأثير البتة لكون هذا المشرک عالما أم جاهلا بحقيقة حاله، بل من لم يكفر بالطاغوت يستحيل إسلامه بغض النظر عن علمه أو جهله.

بل في مجرد احتجاج المخالف بالجهل حجة أخرى على المخالف، إذ لو كان معذورا بجهل حقيقة الإسلام والشرك فكيف يكون مسلما إن جهل حقيقة الإسلام والشرك؟ كيف يشهد بشهادة التوحيد من لم يفهم معناها؟

فثبت أن من ادعى وجود مسلم يعبد غير الله فإنه قد قال بذلك بوجود إنسان كفر بعبادة الطاغوت وفي الوقت نفسه عبد الطاغوت. وكما سيأتي قريبا من رواية مسلم أن الإسلام بني ((عَلَى أَنْ يُوحَّدَ اللَّهُ)) و((عَلَى أَنْ يُعْبَدَ اللَّهُ وَيُكْفَرَ بِمَا دُونَهُ))، والمشرک لا يحقق ذلك بحال.

---

<sup>١</sup> انظر تفاصيل عن الكفر بالطاغوت ومعناه في قسم (الكفر بالطاغوت) من هذا الكتاب.

وكذلك قال النبي ﷺ: ((مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَرَّمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ)).<sup>١</sup> وفي رواية له ((مَنْ وَحَدَّ اللَّهُ ثُمَّ ذَكَرَ بِمِثْلِهِ)).

في كلا الحديثين جعل التوحيد مقابلاً للكفر بالطاغوت. فكيف إذاً يمكن أن يُجعل من طلب الرزق من أحد الأموات من دون الله تعالى، قد كفر بالطاغوت؟ مع أن المراد بالكفر بالطاغوت إنما هو الكفر بعبادة هذا المعبود من دون الله؟

### فصل: معنى كلمة الشرك

في الفصول السابقة تجلّى من النظر في كلمتي الإسلام والمسلم معنى الإسلام وأنه لا ينطبق على مشرك مطلقاً. وكذلك يتبين معنى الإسلام من خلال فهم كلمتي الشرك والمشرِك. لا حاجة إلى إعادة ذكر أن الشرك ضد الإسلام والإخلاص والحنيفية وملة إبراهيم.

وكما أن الإسلام ليس لفظاً مجرداً لا معنى له فكذلك الشرك له معنى وحقيقة يتبين من خلاله أن المشرِك لا يكون مسلماً بحال. إسلام ومسلم وشرك ومشرِك أسماء شرعية لها دلالتها. وهناك أحكام تتعلق بهذه الأسماء وهي تنقسم إلى أحكام الدنيا وأحكام الآخرة. فالإسلام اسم يدل على أوصاف معينة إذا قامت في المرء كان مسلماً، وكذلك الشرك. والشرك والإسلام كغيره من الألفاظ مثل الأكل والشارب والماشي والراكب فيما ذُكر. كل هذه الأسماء لها حقيقة إذا لم تتحقق في شخص لا يخالف عاقل أن الشخص لا يسمى

---

<sup>١</sup> أخرجه مسلم عن أبي مالك عن أبيه.

بها. وهكذا يتبين مرة أخرى أنه لا تأثير هل الشخص عالم أم جاهل بحقيقة فعله، فإنه إما وجدت فيه هذه الحقيقة أم لا، علم ذلك أم جهل.

وكذلك السارق يسمى سارقاً إذا تحققت فيه حقيقة السرقة، سواء علم حكم هذا الفعل في الإسلام أم لا. أما مسألة هل يلحقه حكم السرقة أو يُعذر بجهله فهذه مسألة أخرى تماماً، لكنها لا تغيّر من وجود حقيقة السرقة أي شيء. وقد ظهر اليوم أناس إذا قيل لهم (فلان سارق) يقولون (لا تغل سارق، إنه كان جاهلاً) للدفاع عن بدعتهم، مخالفين للغة والشرع والعقل.

ومثله في هذا من كان مشركاً، فإن من فعل الشرك الأكبر سمي به لوجود حقيقة الشرك فيه، ولا يمكن أن يسمى مسلماً لأنه ليس بمسلم في شيء إذ حقيقة الإسلام لم تتحقق فيه أصلاً. وهؤلاء يتصورون مسلماً مشركاً، لكن بعضهم من جهلهم بأبسط الأمور في اللغة إذا قيل لهم ذلك ينكرونه ويقولون (نحن نقَرّ بأن هذا المسلم فعل الشرك الأكبر، لكنه ليس مشركاً).

ف(مشرِكٌ) في لغة العرب هو اسم الفاعل من (أشْرَكَ)، واسم الفاعل فيه معنى الفعل، ولذلك جاز أن يُوضع موضع الفعل وأن يعمل عمله في الجملة. فيجوز أن يقال (زيدٌ أشْرَكَ بالله شيئاً)، كما أنه يجوز أن يقال (زيدٌ مشْرِكٌ بالله شيئاً)، لا فرق بينهما في أصل المعنى، كما عند قولك (زيد يشرب خمرًا) و(زيد شارب خمرًا). ف(شيئاً) و(خمرًا) في الجملتين مفعول إما للفعل أو لاسم الفاعل الذي يعمل في المفعول عمله اللغوي. فكيف يأتي الآن شخص ويقول (زيد يشرب خمرًا...) - فيقر بتحقيق شربه للخمر -، (إلا أنه ليس شارباً للخمر، لأنه جاهل والجاهل معذور)؟ أما الصواب

في مثل هذا فهو أن يقال (زيد شرب خمرا، إلا أنه جهل حرمة شرب الخمر جهلا معتبرا، فلا يعاقب لجهله.) أي تحققت فيه حقيقة الشرب فهو شارب بلا شك، لكن حكم الشرب يتخلف بسبب الجهل.

فأهل هذه البدعة يقرون بأنه أشرك بالله غيره، فقد أقاموا الحجة على أنفسهم، إذ كفى أن يقال لهم (فهو مشرك بالله غيره؟)، فإن أنكروه قد خالفوا اللغة والشرع والعقل السليم.

فظهر جليا تناقضهم في تصور مسلمٍ مشركٍ بالله. ولما سبق من بديهيات العريّة قال الطبري في النقل المذكور من قبل: **(بل أكثر هؤلاء المشركين بالله لا يعلمون أنهما لا يستويان).**

فإنه استعمل اسم الفاعل تماما كما سبق بيانه، لكن على قول أهل هذه البدعة جاز أن الطبري أراد بـ(المشركين بالله) أي (المسلمين المشركين بالله)، لكن أرجو أن من كانت له بقية عقل لا يلتزم بمثل هذا.

فالمدافعون عن هذا القول الباطل لا بد أن يسألوا أنفسهم، هل هناك مسلم يصح أن تطلق عليه العبارات الآتية:

• مشركٌ بالله إلهاً آخر • عابدٌ مع الله إلهاً آخر • متخذٌ مع الله إلهاً آخر • عادلٌ برّيه إلهاً آخر

## ٢- باب: التوحيد أصل الإسلام فكيف يكون على الإسلام من لم يُحَقِّق أصله؟

أخرج البخاري ((عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةٍ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ)) وفي رواية ((عَلَى خَمْسٍ إِيْمَانٍ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالصَّلَاةِ الْخَمْسِ)) وفي روايةٍ لمسلمٍ ((عَلَى أَنْ يُوحَدَ اللَّهُ)) وفي رواية له ((عَلَى أَنْ يُعْبَدَ اللَّهُ وَيُكْفَرَ بِمَا دُونَهُ)).

هذا أساس الإسلام الذي يَبْنِي عليه بالاتِّفَاق، وأَيُّ بَيْتٍ يَبْقَى إذا ذهب أصله؟

### فصل: المشرك لم يحقق ما خلق له

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)﴾ (الذاريات).

﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي إلا لِيُوحَدُونِ<sup>١</sup>، كما رُوي عن بعض السلف، والمراد إلا لِيُفِرِدُوا الله بخصائصه ولا يشركوا به أحدا في شيء من ذلك، ومنه إفراده بالعبادة، لأن الإقرار بتوحيد العبادة والعمل به يتضمن الإقرار والعمل بتوحيد الربوبية والأسماء والصفات. ولذلك ذكر

<sup>١</sup> وتلك الباء في آخر الكلمة يجوز حذفها في اللغة كما في الآية، والكسرة تبقى إشارة إليها وإن لم يُنطق بها عند الوقف كما في آخر الآية.



بعض أهل العلم أن كل ما جاء في القرآن من الأمر بالعبادة إنما المراد منه الأمر بالتوحيد في العبادة. وهذا لا شك فيه، إذ القرآن كله يفصل المراد من هذا الأمر. ويقال أيضا، لو كان المراد مجرد العبادة لله حتى مع وجود الشرك، لكان عبادة الأصنام موحدين، وفي ذلك ذهاب معنى الدين كله. فتبين أن الله خلق الخلق لعبادته وحده لا شريك له، والمشرک لا يحقق ذلك، فكيف يكون مسلما؟

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ خُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ (البينة).

٣- باب: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ...﴾<sup>١</sup> وحديث امتحان من لم تبلغه رسالة رسول وحديث (لا يدخل الجنة إلى نفس مسلمة)

فمن قال بأن الله يغفر للمشرک ويدخله جنته مع شركه قد رد الآية ولا بُدَّ، إذ معنى قوله (إن الله يغفر أن يشرك به).

روى أحمد في مسنده قال:

((حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ هِشَامٍ قَالَ حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ قَتَادَةَ عَنِ الْأَخْنَفِ بْنِ قَيْسٍ عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ سَرِيعٍ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ أَرْبَعَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ

<sup>١</sup> سورة النساء: ٤٩ و ١١٦

أَصَمُّ لَا يَسْمَعُ شَيْئًا وَرَجُلٌ أَحْمَقُ وَرَجُلٌ هَرَمٌ<sup>١</sup> وَرَجُلٌ مَاتَ فِي فِتْرَةٍ فَأَمَّا الْأَصَمُّ فَيَقُولُ رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَسْمَعُ شَيْئًا وَأَمَّا الْأَحْمَقُ فَيَقُولُ رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَالصَّبْيَانُ يَخْذِفُونِي بِالْبَعْرِ وَأَمَّا الْهَرَمُ فَيَقُولُ رَبِّي لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَعْقِلُ شَيْئًا وَأَمَّا الَّذِي مَاتَ فِي الْفِتْرَةِ فَيَقُولُ رَبِّ مَا أَتَانِي لَكَ رَسُولٌ فَيَأْخُذُ مَوَائِقَهُمْ لِيُطِيعَنَّهُ فَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ أَنْ ادْخُلُوا النَّارَ قَالَ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ دَخَلُوهَا لَكَانَتْ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وَسَلَامًا قَالَ حَدَّثَنَا عَلِيُّ حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ هِشَامٍ قَالَ حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ الْحَسَنِ عَنْ أَبِي رَافِعٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مِثْلَ هَذَا غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ فِي آخِرِهِ فَمَنْ دَخَلَهَا كَانَتْ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا يُسْحَبُ إِلَيْهَا)).

فمن لم تبلغه رسالة رسول لا يمكن أن يكون مسلماً إلا بعد الامتحان، لأنه إنما صار مسلماً بهذا الامتحان، ولو كان مسلماً قبله لما احتيج إلى الامتحان أصلاً، إذ لا يُمتحن مسلم يوم القيامة بإجماع المسلمين، فثبت أنه كان قبله في أحكام الدنيا مشركاً لا محالة. وفي الحديث التنبيه على أن مثل هذا المشرك لم يكن مكلفاً أصلاً مثل المجانين وأمثالهم. وأخرج البخاري عن أبي هريرة وكذا عن عبد الله بن مسعود في حديث آخر قول النبي ﷺ ((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ)).

<sup>١</sup> هكذا في نسخ كثيرة بفتح الراء، وفي أخرى بكسرها وهو المعروف في المعاجم أن يقال في الوصف رجلٌ هَرَمٌ.

هذا الحديث يدل على الإجماع المذكور قبل، أنّ المُشرك لا يدخلها مطلقاً، اللهم إلا أن يُتَّخَذَ فيصير مسلماً فيدخلها، لكنّه كان قبل ذلك في الحياة الدنيا مشركاً بلا شك.

#### ٤- باب: المشرك الجاهل لا يعرف معنى لا إله إلا الله

أجمع أهل العلم أن المرء لا يمكن أن يكون مسلماً إلا إذا حقق شرط العلم بشهادة أن لا إله إلا الله. لا بد أن يعلم المعنى وأن يعمل به عن علم وقصد، وهذا معلوم في بدائه العقول. فلو أن رجلاً لا يعرف العربية سمع (لا إله إلا الله) ونطق بمثل ما سمع دون أي علم بمعناه، فإنه ليس مسلماً بنطقه بالشهادة بإجماع المسلمين. قال تعالى:

• ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ... (١٩)﴾ (محمد).

• ﴿...إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦)﴾ (الزحرف).

• وكذلك لفظ الشهادة يتضمن علم الرجل بما يشهد به، فهذا شرط لصحة شهادته. فإذا لم يتحقق هذا العلم كانت شهادة زور وكذب، فلا تتصور شهادة دون علم وفهم لما يشهد به.

• وعند مسلم ((عَنْ عُثْمَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ)).

والمشرك الجاهل لا يعلم معنى التوحيد، ولو علم معنى التوحيد ما كان مشركاً جاهلاً أصلاً، بل وصلته الرسالة المحرمة للشرك فعاند وأصرَّ على إظهار شركه، مع علمه ببطلانه ومخالفته للرسالة.

ومن الناس من يريد أن يبين أن بعض المشركين مسلمون جهال في مثال وهمي. لكن لو فهموا حقيقة الشهادة لعلموا أن هذا المثال يبين خلاف قولهم. فيقولون نحو ما يلي: (لو أن رجلاً آمن بالله عز وجل وبرسوله ﷺ ثم إنه في لحظة من لحظات حياته شعر بضيق فتوسم في شيخ مسجده الذي يوجد بالقرية الصلاح فذهب إليه وقال له: أشعر بكرب شديد وبضيق في صدري. فقال له الشيخ: سأدلك علي علاج رباني، لقد قال النبي ﷺ: إذا ضاقت الصدور فاستغيثوا بأصحاب القبور. فذهب الرجل يستغيث بأصحاب القبور ظناً منه أن رسول الله ﷺ قد أمره بذلك).

فيقال:

- هذا الرجل في المثال لا يعرف معنى لا إله إلا الله حتماً، فلا يحقق شرط العلم ولذلك يستحيل إسلامه.
- الرجل يعبد غير الله واتخذ إلها من دون الله، فلا يمكن أن يوصف بأنه محقق للا إله إلا الله. إنه ليس مسلماً ولا مخلصاً ولا حنيفاً ولا متبعاً لملة إبراهيم.
- إنه ظن أن الميت يستحق العبادة. ذلك لظنه أن هذا الميت يُطلب منه ما لا يُطلب إلا من الله تعالى، لأنه حسب هذا مناسباً لمقام هذا الميت.
- لو كان حقيقة لا يقدر على العلم بهذه الأمور أي لم يكن متمكناً من العلم بها، فهو في غفلة تامة عن تصور حقيقة التوحيد ولو بلغه الاسم وبعض المعاني. ولا فرق هنا هل انتسب إلى إبراهيم أو إلى محمد أو إلى غيرهما من الأنبياء عليهم السلام، تماماً كحالة العرب في الجاهلية.

• تصديقه الخبر المكدوب يؤكد كل ذلك، لأنه لو علم الإسلام حقيقة لاستحال أن يقبل أي قول مناقض لحقيقته وأن يترك أساس الملة لهذا الخبر. ولو أمكن مثل هذا لجاز أن أحدا من المسلمين يصدّق من جاءه وادعى خبرا عن النبي ﷺ فيه بيان أن الله تعالى له ولد. فهل هذا ونظيره جائز من مسلم، وهل يكون من يصدّق مثل هذا الخبر ويقبل ما فيه مسلما معذورا بالجهل لأنه أراد طاعة الله ورسوله؟ لا أظن أن إنسانا يحترم نفسه يدعي مثل ذلك، لكن كما سبق فهناك من يلتزم حتى هذا الباطل، ويفترض مسلما يعبد عيسى بن مريم عليه السلام ويظنه ابن الله تعالى لحدثة عهده بالإسلام!

وإن لم يجوز أن يُفترض مسلمٌ يعتقد بنوّة عيسى عليه السلام، فكذلك لا يجوز افتراض إسلام عباد القبور، لأن الجامع بينهم الشرك الأكبر. لكن المشكلة أن كثيرا من الناس اليوم لا يعرفون الإسلام ولذلك يشكل عليهم التفريق بين المسلم والمشرك.

وعجيب جدا أن من يورد هذا المثال يقر بأن هذا الرجل في المثال فعل الشرك الأكبر الصريح ثم يحتج بأن التوحيد إنما هو أفراد الله بالطاعة المطلقة! ومعنى هذا القول العجيب أن يقال إن هذا المشرك الجاهل قد حقق التوحيد! وهذا قول في غاية البطالان لا يخفى بطلانه على صبيان المسلمين. إذ كيف يجرّد التوحيد عن معانيه حتى يجعل المشرك الجاهل بحقيقة الإسلام محققا للتوحيد بحجة أنه أراد الخير وأنه إنما أراد أن يطيع الله بشركه؟!

• ومع كل ما سبق يلاحظ أن هذا المثال بعيد جدا عن واقع الناس اليوم. وهذه مشكلة كبيرة أخرى مع أصحاب هذا القول، أنهم لا يُنزلون ما توصلوا إليه على الرجل المفترض في المثال الذي لا يتمكن من العلم بحقيقة التوحيد فحسب، بل يستعملون تقريرهم وينزلونه على كثير من المشركين اليوم أو على معظمهم، مع البون الشاسع بينهم وبين مسألة من لم تبلغه الرسالة التي هي محل النزاع. فأبي مناسبة لذكر هذا المثال عند أناس

يقرؤون القرآن ويسمعونه يومياً ولعل كثيراً منهم حفظ بعضه أو كله؟ فكيف يُدعى أن هؤلاء مثل أهل الفترات الذين ما قامت حجة الرسالة عليهم مع أن الجل الساحق منهم مظنة القدرة على تحصيل هذا العلم بأصل الإسلام؟

وبذلك يظهر سوء قصد أكثر من يجادل عن بعض المشركين بحجة الجهل والانتساب، فإنهم يخالفون الصواب في أمرين. الأول جعلهم المشرك الجاهل مسلماً وهذا يخالف أصل الإسلام واللغة والعقل وإجماع المسلمين. والثاني أنهم ينزلون أصلهم الباطل على كل المشركين اليوم أو كثير منهم فيجعلونهم جهالاً مثل أهل الفترة غير متمكنين من العلم بأظهر الأمور في الكتاب والسنة وأن حجة الرسالة ما قامت عليهم مع أن الكتاب بأيديهم، وهذا كذلك مخالف للعقل والشرع وإجماع أهل العلم، خاصة في هذا الزمان الذي تيسرت فيه سبل تعلم الدين أكثر من أي فترة في التاريخ.

فحتى على قولهم الباطل لا يجوز أن يطبقوه على عامة المشركين اليوم، مما يبين أن قصدهم إنما هو إغذار هؤلاء بكل شيء مهما كان، نسأل الله لنا ولهم الهداية آمين.

## ٥ - باب: لا يدخل المشرك الإسلام إلا بالتوبة من الشرك

قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١)﴾ (التوبة).

قال القرطبي في الآية: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ أي من الشرك.

كما ذكر ذلك كثير من المفسرين وأهل العلم، فلا شك في إجماع أهل العلم على أن المشرك لا يدخل الإسلام إلا بعد توبته من الشرك.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ١٤٦).

فلو نطق أحد المشركين بالشهادتين وصلى وصام، إلا أنه لا يترك الشرك، فإنه لا يمكن أن يصير مسلماً بإجماع المسلمين. مثلاً لو شهد أحد مشركي العرب بالإسلام، وأصرَّ مع ذلك على عبادة اللات والعزى ومناة، فهل يكون معقولاً أن مثله صار مسلماً عند أحد من المسلمين؟

ولذلك علّق الله تعالى الأخوة في الدين المذكورة في الآية على ترك الشرك.

### فصل: أول ما يدعى إليه المشرك هو التوحيد

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه:

((أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ مُعَاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فَقَرَائِهِمْ)).

وفي رواية له ((فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ فَأَخْبِرُهُمْ...)).

وفي رواية له ((فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى...)).

وروى البخاري ومسلم:

((عَنْ سَهْلِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَعْنِي ابْنَ سَعْدٍ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ خَيْبَرَ لَأُعْطِينَ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُفْتَحُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَبَاتَ النَّاسُ

لَيْلَتُهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَى فَعَدُوا كُلُّهُمْ يَرْجُوهُ فَقَالَ أَيْنَ عَلِيٍّ فَقِيلَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ كَأَن لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ فَأَعْطَاهُ فَقَالَ أَقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا فَقَالَ انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ)).

فالأمر بالتوحيد مقدّم على الأمر بالصلاة والزكاة وغيرهما، ومعنى ذلك أيضا أن الشرك أول ما ينهى عنه قبل غيره.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَنَا وَمَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ (١٥١)﴾ (الأنعام).

أجمع العلماء أنّ أوّل ما دعا إليه كل نبي قومه هو التوحيد.

﴿...اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ... (٥٩)﴾ (الأعراف).

قد أخبر الله تعالى في كتابه كثيرا أن كل نبي قال هذا لقومه.

## ٦- باب: من جعل نوعا من المشركين مسلمين بجهلهم يلزمه ذلك حتما في جميع أنواع المشركين

إن العرب في الجاهلية انتسبوا كما تبين من قبل إلى إبراهيم عليه السلام، بل حسبوا أن لهم مقاما رفيعا عند الله تعالى لأنهم كانوا يراعون الكعبة بيت الله تعالى الذي رفع إبراهيم القواعد منه مع إسماعيل عليها السلام. فعباد الأصنام هؤلاء آمنوا بوجود الله تعالى



وعبدوه، بل أخلصوا بعض عباداتهم لله تعالى. فظنوا أنفسهم على دين إبراهيم وانتسبوا إلى الإسلام العام، ولم يجعلهم كل ذلك مسلمين في حقيقة الأمر.

فمن جعل مشركا ما مسلما مجرد انتسابه إلى دين محمد ﷺ، يلزمه حتما أن يجعل أولئك المشركين في الجاهلية أيضا مسلمين. بل مشركو العرب أولى أن يجعلوا مسلمين على هذا القول الفاسد، لأنهم عاشوا في جاهلية جهلاء. فلم يكن هناك كتاب محفوظ من عند الله كالقرآن الذي بين أيدينا إلا بقايا من دين إبراهيم دون آية واحدة مكتوبة منه وبقايا اليهودية والنصرانية.

## فصل: ومن فعل ذلك في نوع من الشرك فإنه يلزمه ضرورة في جميع الأنواع

إضافة إلى ما سبق يلزم من يقول بهذا القول الفاسد أن المرء يحتمل كونه مسلما مع جميع أنواع الشرك الأكبر. فلو أشرك بالله تعالى خالقا آخر أو ابنا أو أمّا، أو نسب إلى بعض الخلق علم الله تعالى، يمكن على أصلهم أن يكون مسلما بشرط أنه لم يعلم أن هذه الاعتقادات تناقض الإسلام وأنه كان ممن ينتسب إلى الإسلام.

وكذلك لو عبد عيسى عليه السلام أو الملائكة لا بد على أصلهم أن يكون مسلما.

## فصل: كثير من المشركين السابقين أولى بالإسلام على أصلهم

وسبب ذلك أن المرء إذا عبد بعض الأموات ويمكن مع ذلك أن يكون مسلما، فمن عبد أحد الأنبياء بل أولى العزم من الرسل أولى، إذ لا شك أن الأنبياء أفضل من سائر الأموات. فالنصارى العابدون لعيسى بن مريم عليه السلام على قولهم أولى بالإسلام لأنهم انتسبوا إلى دينه وفعلوا ذلك جهلا منهم.

وإذا أنكر المخالف ذلك واعترض أنه لا يقر أن من جعل عيسى ابن الله يمكن أن يكون مسلماً يقال له: لماذا لا يمكن ذلك؟ لأنه شرك أكبر؟ فكيف يفرق بين نوعين من الشرك الأكبر؟ فثبت أنه لا يمكن التفريق بينهما إذ لا دليل على هذا التفريق بحال، بل كلاهما مشرك، بل الذي يعبد أمواتا غير الأنبياء أولى بكونه مشركاً من الذي يعبد نبياً كما سبق.

فمن جعل المشرك الجاهل مسلماً في نوع من الشرك الأكبر يلزمه ضرورة أن يفعل هذا في سائر أنواع الشرك، ولو ادعى تخصيص بعض أنواع الشرك بذلك فإنه تخصيص دون أي دليل. أو ظنوا أنه يمكن لهم أن يختاروا من أنواع الشرك ما يريدون وأن يتركوا غيرها؟

لكن الأعجب أن بعض القائلين بهذا القول الفاسد يلتزمون هذه اللوازم الباطلة ويقولون بإسلام من جعل عيسى ابن الله وعبدته. فكيف يكون مثل هذا القائل مسلماً قد فهم معنى التوحيد؟

### فصل: مخالفة للقرآن والسنة والإجماع من وجوه كثيرة

جعل هؤلاء المشركين مسلمين مخالف للدين من وجوه، ومن قرأ القرآن يجزم أن جميع الأنبياء اعتبروا أقوامهم مشركين عندما بعثوا إليهم، وخاطبهم بذلك، ودعاهم إلى ترك الشرك وعبادة الله وحده.

ولذلك اتفق علماء التفسير واللغة والتاريخ على تسمية هؤلاء العرب قبل البعثة بمشركي العرب. وكذلك اليهود والنصارى وغيرهم، فالقرآن يجعلهم غير مسلمين بوضوح وأجمع أهل العلم على ذلك، بل يروون الإجماع أن من لم يكفر اليهود والنصارى فإنه كافر.

## فصل: عامة المشركين إنما يقعون في الشرك بسبب جهلهم

لو قيل بأن المشركين في الجاهلية إنما كانوا مشركين لمعاندتهم مع العلم بالحق لكان ذلك فكرة عجيبة ومن أبين الدلائل على جهل هذا القائل وفساده. بل هؤلاء الجاهليّون إنما فعلوا الشرك لشدة جهلهم كما سبق بيان ذلك في مواضع. فكيف يأتي الآن أناس ويحكمون للمشركين اليوم بالإسلام بينما مشركو الجاهلية عندهم من أعظم الكفار، هذا أمر عجيب جدا. فكأن المشرك عندهم كلما ازداد علما بالحق وكلما تيسرت له سبله كان أحق بالعذر. فمن عرف العربية وحفظ القرآن ثم يعبد الأولياء من دون الله عندهم معذور بجهله، أما المشركون في الجاهلية فلا يترددون في جعلهم مشركين اسما وحكما. فأبي مقياس هذا؟! فهذا تناقض حتى على أصلهم الفاسد.

والحقيقة أن أصلهم يقتضي كون اليهود والنصارى اليوم أولى بوصف الإسلام العام بكثير، لأنهم أجهل بكثير بحقيقة دين الإسلام ونصوصه، وسبيلهم إلى العلم أصعب بكثير من سبيل المشركين الذين يتكلمون العربية ويعبدون القبور والدستور والطواغيت المشرعين والمشايع والأولياء.

كل هذه تناقضات شديدة متسلسلة، والحقيقة كما سبق أن أكثر الناس إنما يفعلون الشرك جهلا لا عن علم ومعاندة.

## ٧- باب: الشرك يحبط جميع الأعمال

إن الشرك الأكبر يحبط جميع الأعمال باتفاق المسلمين. أما سائر الذنوب غير الشرك فإنها قد تحبط بعض الأعمال لكنها لا تحبط عمل الإنسان كله. ومن يقول بإمكان

إسلام بعض المشركين يخالف هذه الحقيقة، إذ أمكن على قوله أن بعض الناس يوجد منهم الشرك الأكبر ومع ذلك لا يحبط إسلامهم.

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥)﴾ (الزمر).

المخاطب في هذه الآية هو النبي ﷺ مع أنه كان معصوماً من الشرك، وذلك مما يسمى بفرض المستحيل، والمراد منه الإتيان بمثال في غاية الوضوح يمكن أن تُقاس عليه كل الصور الأخرى التي دونه. ومعناه أن المذكور في الآية ليس موجّهاً إلى النبي ﷺ أولاً، بل هو تحذير وبيان لعامة الناس الذين ليسوا معصومين من الشرك. ومعنى ما يخبرنا الله تعالى به: (إن كان حتى النبي يفقد جميع أعماله بفعل واحد من الشرك الأكبر ويكون من الخاسرين، فغير النبي أولى بحبوط جميع أعماله).

ولا بد أن ينتبه هنا إلى أن الأنبياء عليهم السلام أشد الناس بلاءً، فأعمالهم خير الأعمال إطلاقاً. ثم محمد ﷺ سيد الأنبياء وخاتم المرسلين. من لم ينتبه إلى هذه الأمور لا يفقه حقيقة هذه الآية وقوة الحجة التي فيها. كل حياة محمد ﷺ مع ما فيها من الأعمال العظيمة من تحمل الرسالة الثقيلة ومشاق الدعوة إليها من عداوة قومه وإخراجه من بلده وقتال المشركين في سبيل الله وثباته في كل ذلك، لو أشرك هو في فعل واحد مع الله إلهاً آخر لفقد جميع هذه الأعمال وخسر الدنيا والآخرة.

والله تعالى يؤكد هذين الأمرين من حبوط العمل وكونه في هذه الحالة من الخاسرين بنون التوكيد الثقيلة. فإذا كانت هذه حالة محمد ﷺ لو فُرض أن تقع منه فعلة شرك، فهل يبقى للمشركين قديماً وحديثاً شيء من أعمالهم؟ بل أهل الشرك في كل زمان أولى ثم أولى

بجبوط جميع أعمالهم، وإذا كان الأمر كذلك فبأي عمل يدخلون جنة المؤمنين كما يدعي ذلك من يجعلهم مؤمنين ومسلمين بحجة الجهل والانتساب؟ وكذلك قال تعالى في آيات أخر:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّن الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِّن عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِّلْعَالَمِينَ (٩٠)﴾ (الأنعام).

٨- باب: مخالفة آيات كثيرة من القرآن وأن لفظ المشركين فيه يشمل الجاهل منهم في الأصل بلا شك

تسمية المشرك مسلماً ومعاملته معاملة المسلمين تؤدي حتماً إلى مخالفات عدة لآيات القرآن. ومن ذلك الآية التي سبق ذكرها:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ افْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ  
لِّلْعَالَمِينَ (٩٠)﴾ (الأنعام).

فهؤلاء هم المهتدون وعلينا أن نقتدي بهدايتهم، لكن الله تعالى يخبر أن هدايتهم في ترك  
الشرك، أما لو فعلوا الشرك لحبطت أعمالهم كغيرهم من البشر، وفي تلك الحالة ما كانوا  
مehتدين بل كانوا ضالين. وكذلك في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى  
اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ  
الْمُكَذِّبِينَ (٣٦)﴾ (النحل).

فهنا يقال أيضا، إذا جعل المشرك مسلما ينقلب معنى الآية بجعله من المهتدين المتبعين  
للأنبياء، لا من الضالين، مع أنه يخالف هداية الأنبياء عليهم السلام لأنه عبد الطاغوت  
بدلا من أن يكفر به.

ومن هذه المخالفة البينة للقرآن أن لفظ المشركين في القرآن يدخل فيه المشرك الجاهل  
حتما:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ  
مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣)﴾ (التوبة).

ففي القرآن أن المسلم لا يجوز له أن يستغفر للمشرك بعد موته، لكن من لم يفهم  
استدلال الآية قد يعترض هنا: (هذه الآية تخبر عن زمان قد انتشرت فيه الرسالة.  
وكذلك ذكر فيها كون هؤلاء المشركين من أهل النار، فليس الكلام أصلا في  
المشرك الجاهل الذي لم تقم عليه حجة الرسالة).

لكن في هذا الاعتراض خلط من وجوه, ومن يفهم حقيقة الأمر يتبين له أن هذا القول حجة على قائله:

• المشركون الذين يتعلق بهم هذا الحكم ليس كلهم عاشوا بعد البعثة, وإن كانت الآية نزلت بعدها. ذلك لأن الاستغفار يمكن أن يكون لمن عاش قبل ذلك الوقت أيضا. ومع هذا لم يكن أولئك المشركون من أهل الفترة الذين لم تبلغهم الرسالة مسلمين يجوز أن يستغفر لهم.

• في الآية حكم عام, واستعمل له لفظ المشركين, وهذا يشمل جميع المشركين, ولو خُصَّص هذا فقط بالمشركين المعاندين الذين قامت عليهم الحجة لكان تأويلا فاسدا للآية بلا شك.

ولذلك لم يذكر أحد من أهل العلم تفريقا بين مشرك ومشرك في هذا الأمر وأنه يجوز الاستغفار لبعض المشركين دون بعض, فعلم أن المشرك الجاهل الذي لم تقم عليه الحجة بالرسالة يدخل في هذا الحكم بلا شك. وأما ذكر عقاب هؤلاء بالنار فالمقصود منه بيان أن الاستغفار يحرم بعد الموت على الكفر, لذا فسر كثير من أهل العلم التبين المذكور في الآية بالموت لأن التكليف ينقطع به. وليس المراد منه قصر تحريم الاستغفار على من قامت عليه الحجة من المشركين وإخراج المشرك الجاهل. ومن ادعى غير ذلك فقد خالف ما قرره الفقهاء وأهل التفسير في هذه الآية.

هذا ما يتعلق بمناقشة الآية وحكم الاستغفار للمشركين. وهناك أناس اليوم يستدلون بمثل هذه الآية للرد على من جعل بعض المشركين مسلمين, إلا أنهم لا يفقهون الاستدلال الصحيح بها بأنفسهم, وهذا يؤدي إلى أن المخالف يردّ الحجة مباشرة بما ذكر فوق من

الاعتراض. لذا يجب أن يكون من استدل بشيء قد فهم بنفسه الحجة التي فيه فهما جيدا، وإلا تكون المفسدة من فعله أكبر من المصلحة التي فيه، وسيأتي قريبا مثال واضح لذلك.

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائُهُمْ لِيُزْذَوْهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧)﴾ (الأنعام).

وفي هذه الآية لا شك أن لفظ المشركين يشمل جميع المشركين، كما في الآية السابقة. فإذا كان من أهل الفترة فإن جهله بالرسالة لا يخرجهم مما في هذه الآية. ذلك لأن الله ذكر علة كون هؤلاء مشركين وهي اتخاذهم شركاء من دونه. فالمشرك الجاهل من أهل الفترة يدخل في لفظ المشركين في هذه الآية بلا ريب، فيكون مشركا لشركه ولن يكون من المسلمين.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٦)﴾ (التوبة).

وهنا يسميهم الله تعالى أيضا مشركين. وما قيل من قبل عن الاستدلال الفاسد بمثل هذه الآيات حتى إن حسنت النية ينطبق على هذه الآية خاصة. فبعض الناس يذكرون هذه الآية لمجرد أن الله تعالى ذكر فيها لفظ المشركين وفي آخرها أنهم لا يعلمون، ثم يحتج بأن الله تعالى جمع في آية واحدة بين الشرك والجهل، ويجعلون هذا هو الدليل. لكن هذا خطأ، والصواب أن الآية فيها حجة على المخالف كغيرها من الآيات المذكورة، لكن لا بد من الاستدلال الصحيح.



الاحتجاج بمجرد ورود الجهل والشرك في آية واحدة خطأ لأن الجهل في القرآن يستعمل أيضا فيما بعد مجيء الرسالة وقيام الحجة، فيمكن أن يكون الجهل المذكور جهلا ناشئا عن إعراض هذا الشخص عن الرسالة مع بلوغها إليه.

فالمخالف يمكن له أن يعترض بأن هذه الآية إنما هي في المشركين المعرضين عن الرسالة عمدا، ويمكن أن يقوي هذا بأن الآية مدنية بعد انتشار الإسلام ووجود دولة الإسلام.

وللمخالف حق في قوله هذا، لأن هذه الآية يدخل فيها المعرضون أولا، لكنه لم ينتبه إلى أمر مهم وهو أن الفترة أمر نسبي، فيمكن أن بعض الناس قبل البعثة بلغهم الإسلام العام وكانوا بذلك مكلفين مع أن الحالة العامة جاهلية وفترة.

وبالعكس، فيمكن أن يكون هناك أناس بعد زمن النبي ﷺ بكثير لم تبلغهم الدعوة وليسوا متمكنين من العلم بها، ولا شك أن الآية تشمل هذا الصنف من المشركين أيضا.

فإذا فُهمت الآية على الوجه الصحيح تبقى الحجة فيها قائمة. فالآية تشمل نوعي الجهل جميعا، الجهل المحض الذي سببه عدم بلوغ الرسالة وجهل الإعراض الذي سببه إعراض المشرك عنها مع بلوغها إليه. ولو زعم المخالف أنه لا وجود لأناس لم تبلغهم الرسالة في وقت نزول الآية، فقد زعم ما لا يمكن له إثباته، فإنه مطالب بالدليل، وأنى له ذلك؟ وحتى لو فرض أنه يأتي بهذا الدليل مع عدم وجوده، لبقيت الحجة قائمة، لأنه لا شك أنه لو تُصوّر مشرك لم تبلغه الرسالة في ذلك الوقت فإنه لا يخالف عالم أنه مشرك داخل في الآية ولا يصير مسلما بجهله بإجماع المسلمين.

﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣)﴾ (الأعراف).

هذه الآية واضحة جدا كذلك، وفيها ذكر الفعل **«يشركون»** لا اسم الفاعل، فلا شك أن المراد هو من يفعل الشرك. فكيف يمكن أن يدعى أن من ذكر في الآية يمكن أن يكون مسلما؟ إلا أنه يمكن على قول من يجعل بعضهم مسلمين بحجة الجهل والانتساب، مع أنهم يدخلون في قول الله تعالى لأنهم فاعلون للشرك على كل حال. فالآية كغيرها في من قامت عليه الحجة من المشركين ومن لم تقم عليهم، بعله فعلهم الذي هو الشرك. فيسأل المخالف: (إذا كان هذا الشخص جاهلا فهل فعل الشرك أم لا؟)، فإن فعله فإنه داخل في الآية، ولا أحد من العقلاء يمكن أن يخالف في ذلك. ومثله يقال في الآيتين الآتيتين.

**﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوقِفُوهُمْ نَصِيحُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (١٠٩)﴾** (هود).

**﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَأَيْتَ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠)﴾** (يوسف).

## القسم الثاني: إثبات عذر المشرك بالجهل

### باب: لا عقوبة إلا بعد الرسالة والأمر والنهي

ظهر جلياً أن فاعل الشرك الأكبر الصريح مختاراً غير مكره من المكلفين مشرك على كل حال. لكن الله تعالى - وقد سبقت الإشارة إلى هذا - من فضله ورحمته على خلقه لا يعذب أحداً حتى يرسل إليه رسولا يذكرهم العهد والميثاق. لأدلة كثيرة، منها ﴿...وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)﴾ (الإسراء) وكذلك ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١)﴾ (الملك)، ففيها أن جميع الكفار قالوا بلى أي أقروا أن جاءتهم الرسل بالرسالة وعُرفَ ذلك من قوله تعالى ﴿كَلِمًا﴾ و﴿قَالُوا﴾ فإنه يفيد العموم في لغة العرب أي ليس هناك كافر يعذب في النار إلا وقد قامت عليه الحجة بالرسالة. ومثله ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فَتِيحتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١)﴾ والاستدلال كالسابق لأن ﴿الَّذِينَ﴾ من ألفاظ العموم.

ثم يحتاج على هذا أيضاً بقوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥)﴾ (النساء). أي أرسل الله

الرسول حتى لا يبقى لهم أي حجة، والمفهوم أنه إن لم تبلغهم الرسالة أصلاً بقي لهم نوع حجة يحتجون بها، وهذا موافق للفظ الحديث الذي سبق ذكره في أن أهل الفترات ممن يحتاج يوم القيامة. وقد يقال أيضاً لو قامت الحجة بمجرد العقل والفطرة دون حاجة إلى الرسالة في ذلك فما فائدة إرسال الرسول.

أما السنة فقد سبق حديث الأسود بن سريع في الامتحان يوم القيامة وهناك أحاديث أخرى، قال ابن القيم رحمه الله فيها:

(أحدها أن أحاديث هذا الباب قد تضافرت وكثرت بحيث يشد بعضها بعضاً، وقد صحح الحُفَاطُ بعضها كما صحح البيهقي وعبد الحق وغيرهما حديث الأسود بن سريع. وحديث أبي هريرة إسناده صحيح متصل...

الوجه الثاني أن غاية ما يُقدَّر فيه أنه موقوفٌ على الصحابيِّ، ومثلُ هذا لا يقدم عليه الصحابيُّ بالرأي والاجتهاد، بل يُجزم بأن ذلك توقيفٌ لا عن رأيٍ.

الوجه الثالث أن هذه الأحاديث يشد بعضها بعضاً، فإنها قد تعددت طرقها واختلفت مخارجُها فيبعدُ كلُّ البعد أن تكون باطلةً على رسول الله لم يتكلم بها، وقد رواها أئمةُ الإسلام ودونوها ولم يطعنوا فيها).<sup>١</sup>

<sup>١</sup> أحكام أهل الذمة ٢: ٦٥٠

فمن مات من أهل الفترة جاهلا بالإسلام لا يتمكّن من العلم به فإنه مشرك جاهل لا يعرف الإسلام - هذا القدر لا خلاف فيه بين العلماء قاطبة - , ويمتحن يوم القيامة في أصحّ قولٍ العلماء لنصوص السنة الدالة على ذلك والله تعالى أعلم.

ومع ذلك ينبغي أن يذكر أن هناك رأيا آخر عند بعض علماء أهل السنة وهو أنه لا وجود للمشرك الجاهل أصلا. فقالوا إن حجة الرسل بلغت كل أحد بعينه. وهؤلاء يحكمون على كل من وقع في الشرك الأكبر ولم يتب منه بأنه كافر مخلد في النار بلا استثناء.

ثم هناك رأي ثالث والمشهور نسبته إلى المعتزلة<sup>١</sup> وهو أنه يوجد مشركون لم تبلغهم الرسالة إلا أنهم ليس لهم أي عذر قبل بلوغ الرسالة إليهم, بل الحجة قامت عليهم بمجرد العقل والفطرة.

وفيما يلي احتجاج كل هؤلاء المخالفين مجمعا:

- إن الله قد بين كفر المشركين وأنهم معذبون في عدة مواضع من كتابه فيجعل هذا هو الأصل ولا يستثنى منه شيء إلا بدليل صحيح. فالأصل عدم وجود من لم تبلغه الحجة إلا بدليل صحيح.

---

<sup>١</sup> هذا ما يبدو لي, وحتى لو فرض أن بعض من يحسب من علماء أهل السنة تأثر بهذا الرأي فهذا لا يجعله رأيا مقبولا واردا عند أهل السنة والجماعة, والله أعلم.

• أما آية الإسراء في عدم التعذيب فيجيبون عنه بأن المراد نفي العذاب في الدنيا لا في الآخرة. فهي عندهم مخصصة بالأصل المذكور آنفا، ولا تصلح وحدها لتخصيصه. لكن يمكن أن يقال في هذا إن الله تعالى إذا أوقف عذابه عنهم في الدنيا رحمة بهم فإيقاف عذاب الآخرة أولى لهذا السبب، إذ ما فائدة ترك العذاب الأصغر مع تحقيق العذاب الأكبر؟!

• أما ألفاظ العموم في أن كل الكفار يقرون بإرسال الرسل إليهم فيجيبون بأنه حجة لهم لا عليهم إذا لم يأت هناك دليل يبين أن بعض البشر لم يأثم رسول أصلا في نظرهم. وقد يقال هاهنا إن الذين لم تقم عليهم الحجة في الدنيا هم أيضا ممن أتاها رسول، كما جاء في الحديث المذكور، إلا أنه يجيئهم يوم القيامة قبل انقطاع التكليف بدخول الجنة أو النار.

• أما آية النساء فيقول المعتزلة فائدة إرسال الرسل أن الله يريد أن يظهر الحجة ظهورا تاما وأن يقطع كل سبيل الاحتجاج وإن قامت الحجة عليهم قبل وجود الرسالة بمجرد عقولهم وفطرهم.

• وأما الأحاديث فالمخالف يضعفها.

والله تعالى أعلم.

## القسم الثالث: بيان معنى الكفر بالطاغوت<sup>١</sup>

### ١ - باب معرفة معنى الطاغوت وأوجب الواجبات

الكفر بالطاغوت والإيمان بالله أوجب الواجبات، فهذا معنى (لا إله إلا الله)، والقرآن كله مليء بتقرير هذا المعنى، بل هذا هو سبب إنزال جميع الكتب وإرسال جميع الرسل. وأما لفظ الطاغوت فهو يتكرر في القرآن في ثمانية مواضع، كل واحد من هذه المواضع يتعلق بأصل التوحيد، ويتضح منها أن الدين - كما سيأتي بيانه مفصلاً - لا يتحقق إلا بالعلم بمعنى الطاغوت فالكفر به عقب العلم بمعناه، وهذا يؤكد وجوب العلم به على كل مكلف • لأن الكفر بالطاغوت هو الشطر الأول من قولك (لا إله إلا الله) إذ معناه (لا معبود حق إلا الله) • فمعرفة معنى الطاغوت شرط في صحة الإسلام.

نعم، يُصور أن المرء يجهل اللفظ، لكن لا يمكن أن يكون مسلماً إلا إذا كفر بكل ما يُعبد من دون الله، وهذا هو الكفر بالطاغوت. فإذا تحقق الكفر بالطاغوت مع سائر شروط الإسلام فهو مسلم، حتى إن جهل اللفظ لعدم بلوغ النص ونحوه، بل لو تأول في عدم تسميته طاغوتاً مع تحقق الكفر بالطاغوت لم يكفر بمثل هذا التأول حتى تكشف

<sup>١</sup> هذا القسم كان قبل إدخاله هنا رسالة مفردة وحاولت فيه أن أوجز العبارة ما استطعت مع عدم الإخلال بوضوحها، وذكرت فيها الأدلة والفوائد المأخوذة منها مع فصل كل فائدة عن التي تليها بعلامة.

عنه شبهة التوقف في تسميته طاغوتا، إذا كان مثله يجهل ذلك جهلاً مُعتَبَراً • فلا يمكن أن يكون المرء مسلماً إلا إذا علم أن العبادَةَ والطاعةَ لله وحده لا شريك له. ومن لم يعلم ذلك فهو ليس بمسلم لا محالة، إذ العلمُ مقدَّمٌ على العملِ، فالعلمُ بحقيقة شهادة الإسلام شرطٌ أصيلٌ من شروط الإسلام.

## ٢- بابُ أصلِ معنى الطاغوتِ في لغة العرب

• كلمة الطاغوت من قول العرب (طَغَى) بمعنى (تجاوزَ حدّه) • فقالوا طغى الشيءُ أو فلانٌ يطغى طغيانا • ومنه قوله تعالى ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ (١١) (الحاقة) أي لما تجاوز الماءُ حدّه عند الطوفان • وقوله تعالى عن فرعون ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾ (النازعات: ١٧ وطه: ٢٤ و٤٣) أي تجاوزَ حدّه إلى الظلم المطلق فصار ظالماً، إذ الحد الذي حد للعباد هو العبودية فمن تجاوزَه وصار معبوداً فهو طاغوت • والطاغوتُ في استعمالِ العربِ هو الكثيرُ الطغيانِ • ويُستعملُ للمُفردِ والجمعِ والمذكَّرِ والمؤنَّثِ • وجمعُ طاغوت طواغيثُ وجمع طاغية طواغٍ • لذلك قال السلفُ عن الرجلِ بأنه مؤمنٌ بالطاغوت إذا كانوا يرونه كافراً، كما رُوي ذلك عن الشَّعْبِيِّ رحمه الله وغيره في الحجاج بن يوسف الثقفي. فلم يرد مثل ذلك في كلامهم عن مسلمٍ ظالمٍ. فإنَّ سمّوه طاغوتا نفسه فإنَّ كفره أولى. وقد يؤهّمُ خلافَ ذلك بعضُ من يجادلُ عن الطواغيت.



### ٣- باب معنى الطاغوت هو كل ذي طغيان على الله وكل ما عُبد من دون الله

فيما يلي بيان معنى الطاغوت في القرآن والسنة أي في استعمال الشرع وأنه كل ذي طغيان على الله<sup>١</sup> وكل ما عُبد من دون الله، وأنه الشيطان، وأن هذين التفسيرين معناهما واحد بلا شك.

• قال المُفسِّرون الطاغوتُ هو كل ما عُبدَ من دون الله • حتى قال الواحدي (قال جميع أهل اللغة الطاغوت كل ما عبد من دون الله)<sup>٢</sup> • والمراد قول أهل اللغة في معنى الطاغوت في الشرع لا في اللغة، لأنَّ العرب ما أرادوا هذا في كلامهم • وهو المعنى الصحيح الذي لا يُقبل الخلاف فيه • وروى المُفسِّرون عن السلف (الطاغوت الشيطان) • وهو صحيحٌ أيضًا، وهذا التفسيرُ والذي قبله هما واحدٌ، لا فرقَ بينهما • لأنَّ الشيطانَ يدخلُ في معنى الطاغوت أُولًا • ولأنَّه الطاغوتُ الأكبر، إذ الشيطانُ يدعُو الجميعَ إلى عبادته • حتى مَنْ يُعبد من دون الله ويَرْضَى بهذه العبادة ويدعو إليها أي حتى الطواغيتُ

---

<sup>١</sup> ويدخلُ في ذلك كلُّ مَنْ جعلَ لِنَفْسِهِ مَقَامَ الربوبيةِ مثل مُدَّعي علم الغيبِ المطلق والمشرِّع من دون الله ونحوهما...

<sup>٢</sup> انظر الدرر السنية ٢: ٣٠٠.

الآخرون ما دعاهم إلى كفرهم هذا إلا الشيطان اللعين. أي كلُّ مَنْ عَبَدَ غَيْرَ اللَّهِ فقد عَبَدَ الشيطان.

### فصل: ذِكرُ بعضِ السلفِ أمثلةً مختلفةً للطاغوتِ في تفسيرهم

ويُسمَّى ذلك اختلافَ تَنَوُّعٍ لا اختلافَ تَضَادٍّ، ومعناه أنهم لم يختلفوا حقيقةً، وَمَنْ ظَنَّ ذلك فقد أخطأ • ذَكَرَ بعضُ السلفِ أمثلةً ففسَّروا الطاغوتَ بالكاهنِ والساحرِ والأصنامِ وتَراجمةِ الأصنامِ وأجبارِ اليهودِ فلفظُ الطاغوتِ يَشْمَلُ كلَّ هذه الأفرادِ فتفاسيرهم متَّفِقَةٌ في المعنى.

### فصل: تنبيهٌ إلى قاعدةٍ (العبرةُ بعمومِ اللفظِ لا بخصوصِ السببِ)

هكذا يعبرُ عنها الأصوليون، ومعناها: (إذا كان النصُّ عامًّا يَشْمَلُ الحكمَ المأخوذُ من هذا النصِّ كلَّ ما يدخلُ في عمومِهِ قِطْعًا، سواءً أوردَ هذا النصُّ لسببٍ معيَّنٍ أم لا). فهذه القاعدةُ أساسُ في الدين كله، وَمَنْ لم يلتزم بها فإنه يُلغِي الدينَ من أصلِهِ وإن لم يَشْعُرْ • لأنَّ مخالفةَ هذا الأصلِ معناه أنَّ اللهَ إذا بيَّنَ بلفظٍ عامٍّ أنَّ (مَنْ يفعلْ كذا وكذا فإنه كافر) مثلاً، فلك أن تقولَ (إنما نزلَ في اليهودِ واللهُ أرادَ أن يخبرنا أنهم كفروا بذلك، أما نحن فمن يفعلهُ منا فلا شيءَ عليه)، ولو كان هذا فلا معنى للآياتِ بل وللدينِ كلِّهِ إلى يومِ القيامةِ، وهذا أعظمُ طعنٍ في حِكْمَةِ الله في تنزيلِ هذا القرآن، والعياذُ بالله.

#### ٤- باب الدليل على أن الشيطان هو الطاغوت الأكبر وبيان كيفية عبادته

قال تعالى ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢)﴾ (يس) في هذه الآيات يتبيّن:

- أن الشيطان اللعين يُعبد من دون الله • أن الله جعل عبادة الشيطان مُقابلاً لعبادته تعالى • وهذا يدل على أن من عبد شيئاً ما غير الله فقد عبد الشيطان • ويدل عليه مثله قوله ﴿ولقد أضل منكم...﴾، فالشيطان أضلّ خلقاً كثيراً لكن أكثرهم لا يعبدونه بأن يسجدوا له، بل دعاهم إلى عبادة غير الله من الأصنام ونحوها فاستجابوا له • أما عبادة الشيطان في كل ذلك فإن يُطيعه العبد في الكفر الذي أمر الشيطان به • ومنه يتّضح أن أكثر عبادة الشيطان بأن يُطاع في أي نوع من أنواع الكفر والشرك الأكبر، لا بالسجود له • وأن الطاعة في الكفر عبادة لغير الله وعبادة للشيطان وإن لم يُسجد لِأمر بهذا الكفر • أن الأمر بالكفر طاغوت مُطلقاً.

وقال تعالى: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤)﴾ (مريم) أي لا تعبّد الشيطان بأن تُطيعه فيما يأمرُك به من عبادة الأصنام • لأن أباه وقومه ما قَصَدوا عبادة الشيطان بالسجود. والدليل على ذلك التصريح بأنهم عبدوا الأوثان في عدّة مواضع من القرآن، منها ﴿إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣)﴾ (الأنبياء) و﴿إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١)﴾ (الشعراء).

## ٥- باب الطواغيت كثيرة وتسميته النبي ﷺ الأصنام طواغيت

فيما يأتي إبطال ظن من يظن أن إبليس وحده هو الطاغوت، وهذا تأكيد أن السلف ما أرادوا تخصيص الطاغوت بأنه إبليس أو الأصنام أو غير ذلك، بل فسروا المعنى العام بأن ضربوا أمثلة.

قال تعالى: ﴿...وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ... (٢٥٧)﴾ (البقرة).

• فالطواغيت كثيرون ومنهم بل رأسهم إبليس لعنه الله.

وفيما أخرجه البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ((...كَذَلِكَ يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الشَّمْسَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الْقَمَرَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الطَّاغُوتَ...)) وكذلك عنه ((وَكَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لَطَوَاغِيَتِهِمْ... وَالْحَامُ فَحُلُ الْإِبِلِ يَضْرِبُ الضَّرَابَ الْمَعْدُودَ فَإِذَا قَضَى ضِرَابَهُ وَدَعَا لِلطَّاغُوتِ)) وعنه أيضا ((لَا فَرَعٌ وَلَا عَتِيرَةٌ وَالْفَرَعُ أَوَّلُ النَّتَاجِ كَانُوا يَذْبَحُونَهُ لَطَوَاغِيَتِهِمْ وَالْعَتِيرَةُ فِي رَجَبٍ)).

وأخرج مسلم عن عبد الرحمن بن سمره عن النبي ﷺ ((لَا تَحْلِفُوا بِالطَّوَاعِي وَلَا بِآبَائِكُمْ)) وفي رواية أحمد ((بِالطَّوَاعِي)) وفي البخاري من قول عائشة ((لَمَنَآ الطَّاغِيَةُ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا)) وفي البخاري ((طَاغِيَةُ دُوسٍ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ)).

## ٦- باب الكفر بالطاغوت والإيمان بالله أوجب الواجبات وأولها

﴿...فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٥٦) (البقرة).

فوائد الآية: • وجوب الكفر بالطاغوت واشترائه لصحة الإيمان ووجوب الإيمان بالله • من حقق هذين فقد استمسك بالعروة الوثقى وهي الدين الحق والإسلام ولا إله إلا الله • وإلا فلا يكون مسلماً • قدّم الله الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله وهذا يؤكد أهمية الكفر بالطاغوت • فالمطلوب نفى الألوهية عن كل ما يُعبَد وإثباتها لله وحده • كما في لا إله إلا الله • إذ من عبَد مع الله شيئاً فهو مشرك لا إيمان له، علم من الحق ما علم وفعل من الحسنات ظاهراً ما فعل • الطاغوت يؤمن به ويكفر به • فلا يتحقق الإيمان إلا لمن قد كفر بالطاغوت • لا يجتمع الإيمان والكفر الأكبر في قلب واحد في آن واحد، فيستحيل أن يؤمن بالله وبالطاغوت أي أن يعبد الله والطاغوت في آن واحد، كما يستحيل أن يكفر بالله والطاغوت في آن واحد. فهما نقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان • وجوب العلم بالطاغوت أنواعهم وأوصافهم • وجوب العلم بهذا الكفر نفسه ما هو وكيف يُحقَّق هذا الكفر بالطاغوت • وجوب العلم بالله أسمائه وصفاته وأفعاله • وجوب العلم بهذا الإيمان نفسه كيف يُحقَّق هذا الإيمان بالله • إذ لا يمكن تحقيق كل ذلك وهو التوحيد إلا بالعلم المذكور، فكيف يؤمن بالله ويكفر بالطاغوت وهو لا يدري من هو الله ومن هو الطاغوت وما هو الإيمان وما هو الكفر • هذا العلم يجب طلبه على كل مسلم ومسلمة.

**فوائد أخرى:** قبلها آية الكرسي وهي أعظم آية في القرآن لما تَتَضَمَّنُ مِنْ بيانِ التوحيد  
 • فجاء في هذه وتاليَّتها التفصيلُ وبيانُ الكفرِ وكلُّ ذلك يُدُلُّ على عِظَمِ هذه القضيةِ •  
 • قد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ والغيُّ وبذلك الفرقُ بينهما، وهذا فائدةُ الحرفِ (مِنْ) في **﴿مِنْ الْغِي﴾** •  
 الكفرُ والإيمانُ، والحقُّ والباطلُ، والفرقُ بينهما، كلُّ ذلك بيَّنَ لمن أراد معرفته • دين الله  
 أثبتُ شيءٍ في الدنيا وأجدرُهُ بأن يُتَمَسَّكَ به • ومن لا يستمسكُ به بِتَحْقِيقِ الكفرِ  
 بالطاغوتِ والإيمانِ بالله ويريدُ أن يستمسكَ بغيره فلا ثَبَاتَ له بل يهوي في هاويةِ الكفرِ  
 والعياذُ بالله.

وقال تعالى: **﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ  
 مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ  
 عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦)﴾** (النحل).

**فوائد الآيات:** قد بعث الله في كل أمة رسولاً • وأمر كل رسول أن يأمر قومه بعبادة الله  
 واجتناب الطاغوت • أن الدين كله عند جميع الرسل يقوم على هذين الأمرين •  
 الاجتناب أشدُّ تحريماً ويدخل في ذلك بُغْضُهُ والبراءةُ منه كما سيأتي بيانه.

### فصل: مَنْ لَمْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ لَمْ يَدْخُلْ فِي الْإِسْلَامِ

فإن كان جاهلاً بأن لم تقم عليه حُجَّةُ الرسالة فهو مشرك جاهلٌ يُمْتَحَنُ يومَ القيامةِ، أمَّا  
 لو كان مسلماً قبلُ يرتدُّ بذلك لقوله تعالى **﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ  
 اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى (٢٥٦)﴾** (البقرة).

الطاغوت اسمُ جنسٍ دخلت عليه الألفُ واللامُ لاستغراقِ الجنس، فيشملُ كل ما يدخلُ  
 في معناه من أنواعه وأفراده • المطلوبُ أصلاً أن يكفُرَ المسلم بكل طاغوتٍ بعينه •

ومعلوم في بدائه العقول أنه ليس مطالباً بأن يكفر بالطواغيت الذين لا يعرفهم أصلاً • وما يماثل ذلك أن يعرف شخص الطاغوت لكنه يجهل حاله أي يجهل أنه يفعل أفعال الطاغوت • أما مَنْ عرفه وعرف حاله لكن جهل حكمه في الشرع فهذا لا يكون مسلماً، لأنَّ كلَّ مَنْ لم يكفر بالطاغوت فهو مشركٌ عابداً لغير الله بوجهٍ مِنَ الوجود، وإن لم تقم عليه الحجة فهو مشركٌ جاهل.

## ٧- باب من عبادة الطاغوت والإيمان به أتباعه فيما يأمر به من الكفر

قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)﴾ (التوبة) • ذلك أنهم كانوا يتبعونهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال وليس المعنى أنهم عبدوهم بالسجود وغيره • لذا تجد جميع المفسرين المعبرين متفقين على صحة معنى ما روي عن النبي ﷺ أن قال عدي بن حاتم ((أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب قال فسمعته يقول (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله...) قال قلت يا رسول الله إنهم لم يكونوا يعبدونهم قال أجل ولكن يحلون لهم ما حرم الله فيستحلونه ويحرمون عليهم ما أحل الله فيحرمونه فتلك عبادتهم لهم))<sup>١</sup> وتجدهم متفقين على صحة تفسير هذه الآية بهذا المعنى وإن كان في سند الحديث شيء.

<sup>١</sup> أخرجه الترمذي والطبراني في الكبير والبيهقي في الكبرى واللفظ له.

## ٨- باب كيف يُحقَّقُ الكفر بالطاغوت

الكفر بالطاغوت واجتنابه هو الكفر بعبادة الطاغوت، ولا بدَّ في الكفر بالطاغوت من بغضه وعداوته. ويلزم ضرورة أن يعلم المسلم أن الطاغوت ليس على دينه. ولا يتحقَّق الكفر بالطاغوت في الواقع إلا مع العلم بأنَّ مَنْ عبد الطاغوت عبادةً حقيقيَّةً وأشركه بالله شركاً أكبر صريحاً، ليس على دين الإسلام.

فيتلخَّصُ من الشروط ما يلي: اعتقادُ بطلانِ عبادته • عدم عبادته • نفي حقيقة الإسلام عنه • بغضه • ويلزم منه عدمُ موالاته ونصرته بل عداوته حسب القدرة. والمرادُ بالأخير إظهارُ العداوة وهو متعلِّقٌ بالقدرة بخلافِ البغضِ في القلبِ فهو لا يسقط مطلقاً.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَاعِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦) وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر).

فوائد الآيات: الطاغوت يُعبدُ من دونِ الله • تفسير الاجتناب أنه بعدم عبادته • من ترك عبادة الطاغوت وكفر به وأناب إلى الله وآمن به فهو من الفائزين الذين لهم البشرى،



كما قال تعالى في سورة يونس واصفا أوليائه ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ...﴾ (٦٤) • مدح مجتنب الطاغوت • أنهم خلافت أولئك الخاسرين المعذبين في النار • أن السماع قصدا أي بذل الجهد فيه والعمل بعد السماع مباشرة من أصل الهداية • أنهم يتصفون بهذه الأوصاف الحميدة • أولئك هم أولو الألباب • تعريف طريقي الجملة وضمير الفصل مؤكداً ذلك.

## ٩- باب التوحيد أولاً

بما سبق تبين أن التوحيد هو أعظم علم يُتعلم، والعمل به أعظم عمل، وهو أعظم علم يُعلم، والدعوة إلى الإيمان وعن الكفر أعظم دعوة، والإيمان أعظم معروف يؤمر به، والكفر أعظم منكر يُنهى عنه • ولذلك يجب حتماً أن يكون أولاً في كل شيء، في التعلم والعمل والتعليم والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر • لا يفقه هذا أكثر الناس مع كونه من أبسط الأمور في الدين لمن فهم حقيقته.

## ١٠- باب أنصار الطواغيت من علماء السوء وسائر جنودهم كفار، وأهم أسباب كفرهم وشركهم

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (٧٦) (النساء).

القتال في سبيل الطاغوت فِعْلٌ مُكْفَّرٌ • مما يشمل القول المَقُول والمكتوب لأنَّ الأوَّل كثيراً ما يكون أشدَّ تأثيراً في الحرب من الثاني • فاعله من أولياء الشيطان • أَمَرَ اللهُ المؤمنين بقتالهم.

فظاهر هؤلاء أتهم مشركون • وأهم أسباب ذلك: حماية الطواغيت المختلفة من قوانين الكفر ومشروعيتها ومؤسسيها والقاضين بها ومنفذيها وغيرهم • إجبار الناس على العمل بالتشريع المخالف والزامهم الكفر • الإقرار للطاغوت بالطاعة المطلقة وهذا شرك أكبر إذ لا يستحقها إلا الله • تنفيذ أوامر الطاغوت التي تشمل عدَّة مكفَّرات • إظهار الرضا بالطاغوت وهو كفر وشرك وإن لم يرضَ به باطناً، فذلك لا ينفعه شيئاً. مَنْ أظهر الرضا بالكفر صراحة - أي من دون أن يورِّي ويستعمل المعارض - ومن غير إكراه فهو كافر بالإجماع بغض النظر عن باطنه، ثم إن كان ييغضه في الباطن فحبُّه للدنيا أكبر وهو الذي أَدَّى إلى تلقُّظه بالكفر، فهو أثر الكفر لبعض الدراهم على دينه، فيكون داخلياً بلا شك في قوله تعالى ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧)﴾ (النحل).

## ١١ - باب بيان أن الطاغوت أكفر الكفرة وبعض صفاته وفوائده أخرى

قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧)﴾ (البقرة).

الله وليّ الذين آمنوا • والطاغوت ولي الذين كفروا، فالكفار يتولونه وهذا من صفاتهم •  
 الله يُخرج الذين آمنوا من الظلمات إلى النور أي من الكفر إلى الإيمان • والطاغوت يفعل  
 العكس بالذين كفروا وهذا من صفاته • الطاغوت مخالف الله تماماً • الظلمات أي  
 الضلالات وسبل الشيطان متعددة كثيرة • النور أي الحق والصرط المستقيم واحد لا  
 يتعدّد أبداً • الطواغيت المضللون كثيرون • الهادي واحد وهو الله • الذين كفروا يخرجون  
 من الإيمان إلى الكفر ويكفرون، أما الطاغوت فيخرجون ويكفرون أي يجعلونهم كفاراً فهم  
 أكفر • الطاغوت أكفر الكفرة ورأس الكفر.

تنبيه: إن قيل (ليس كل كافر كان في الإيمان حتى يخرج) أجيب (بلى، وُلد على  
 الفطرة حتى أخرجه الطاغوت) وإن قيل (لكن ليس كل مؤمن كان في الكفر حتى  
 يخرج) فقد بيّنه الطبري لما قال<sup>١</sup>:

(فَيَكُونُ تَضْلِيلُهُمْ إِيَّاهُمْ حَتَّى يَكْفُرُوا إِخْرَاجًا مِنْهُمْ لَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ يَعْنِي صَدَّهُمْ  
 إِيَّاهُمْ عَنْهُ وَحَرَمَانَهُمْ إِيَّاهُمْ خَيْرُهُ وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا كَانُوا فِيهِ قَبْلَ كَقَوْلِ الرَّجُلِ: أَخْرَجَنِي  
 وَالِدِي مِنْ مِيرَاثِهِ: إِذَا مَلَكَ ذَلِكَ فِي حَيَاتِهِ غَيْرَهُ , فَحَرَمَهُ مِنْهُ خَطِيئَةً , وَلَمْ يَمْلِكْ  
 ذَلِكَ الْقَائِلُ هَذَا الْمِيرَاثَ قَطَّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ , وَلَكِنَّهُ لَمَّا حَرَمَهُ , وَحِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا  
 كَانَ يَكُونُ لَهُ لَوْ لَمْ يَحْرَمَهُ , قِيلَ: أَخْرَجَهُ مِنْهُ , وَكَقَوْلِ الْقَائِلِ: أَخْرَجَنِي فَلَانٌ مِنْ  
 كَتِيبَتِهِ , يَعْنِي لَمْ يَجْعَلْنِي مِنْ أَهْلِهَا , وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا قَطَّ قَبْلَ ذَلِكَ).

<sup>١</sup> عند كلامه على الآية ٢٥٧ من سورة البقرة.

## فصل: معنى إخراج الطاغوت الذين كفروا من الإيمان إلى الكفر هو أن يُضِلُّهم عن الإيمان ويصدِّهم عنه

فليس المراد أن الطاغوت يجعلهم كفاراً في حقيقة الأمر، فذلك لا يقدر عليه مخلوق • حتى إبليس وهو أكثرهم تضليلاً، والدليل قوله تعالى ﴿...وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي...﴾ (٢٢) (إبراهيم) • ومن تأمل هذا يُدرك عجائب الجهل بين المنتسبين إلى الإسلام من قول الرجل (ليس بابا الكنيسة طاغوتا، لأنه لا يُخرج الناس إلى الكفر) وقد فاجأني بذلك بعض الناس، منهم من ينتسب للعلم.

• بل هذا الإخراج أهمُّ صفةٍ في الطاغوت • لذا قال القرطبي (قال الجوهري: والطاغوت الكاهن والشیطان وكل رأس في الضلال) <sup>١</sup> • وهذا التضليل والصدُّ أنواعٌ • فإما بالدعوة المحضّة إلى الكفر والأمر به فيتَّبِعُه الناسُ من تلقاء أنفسهم • أو بقهرٍ منه فيجبرهم على الكفر • وهنا يتبيّن أن كلّ داعٍ إلى الكفر أمرٌ به طاغوتٌ • وأن كلّ من يُكرِّه الناسَ على الكفر أولى بأن يكونَ طاغوتا.

<sup>١</sup> تفسير القرطبي ٣: ٢٨٢

## ١٢ - باب ليس طاغوتاً من يُعبد من دون الله وهو كارهٌ لهذه العبادة

مثل عيسى عليه السلام والملائكة وعبد القادر الجيلاني فإنه كان من علماء المسلمين، وكما قال تعالى في سورة سبأ ﴿وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١)﴾ (سبأ).

## ١٣ - باب أنواع الطاغوت، وأهم الطواغيت في زماننا

كل ما يعبد من دون الله طاغوتٌ إلا إذا كرهه • منها ما هو حيٌّ مُكَلَّفٌ مسؤولٌ عما يفعل كشياطين الإنس والجن فهؤلاء كفارٌ • وما ليس مسؤولاً كالحَيوان والشجر والحجر فهذه لا تتَّصف بالكفر أصلاً • وهي طواغيتٌ، وإن كان المشرك غالباً لا يعبدُ في الحقيقة نحو الحجر نفسه بل ما يتخيَّلونه من أرواح الصالحين الأموات التي اتخذوها آلهةً من دون الله.

كل من اتَّصف بالصفات المذكورة فهو طاغوتٌ وهذا يَنْطَبِقُ على عِدَّةِ أصنافٍ • منها ما يكثر وجوده بين الناس عموماً، لذا تجد أنَّ الله تعالى يذكر في كتابه هذه الأنواع كثيراً، كطاغوت الحكم، وهذا الطاغوت عمُّ اليوم جميع البلاد • فالذي يُضلِّهم هو طاغوت قومهم أو دينهم الباطل أو عائلتهم ونحو ذلك •

**ذكر الطواغيت:** الأصنام • تراجمة الأصنام الذين يُعبِّرون عنهم بباطلهم • الكاهنُ يُضلِّهم بادِّعائه علم الغيب • الساحر • رؤوس الأديان الباطلة ومنهم أحبار اليهود وrehبانُ النصراني • الهوى إذا اتَّخذَ إلهاً من دون الله بأن يُتَّبَعَ في كل ما يأمرُ به مطلقاً وإن

كان كفرا وشركا • المحبوب لذاته أي أن يُحِبَّ مستقلا ولا يُحِبُّ في الله فيُتبع في كل ما يأمر به مطلقا وإن كان كفرا وشركا • وكذلك المطاع لذاته • والمعظم لذاته • والمُشَرَّع من دون الله المُعَيَّر لأحكام الله بوضعيه قانونه الذي أوحاه الشيطان إليه، فإنه قد جعل نفسه بذلك في مقام الربوبية • والحاكم بغير شريعة الإسلام وإن لم يُشرَّع • ومن يُحاكم إليه غير الله ورسوله ويأتي بيانه في باب مُفَرَّد • والديمقراطية وهي صنم زماننا الملعون وأجزاؤها وهيئاتها من المجالس النيابية والدستور والقانون والأكثرية، إذ في كل ذلك يُجعل حق التشريع للشعب وهذا الحق مما يختصُّ به الله في ربوبيته • وهيئة الأمم المتحدة ومَحَكَمَةُ العدل الدولية وغير ذلك من أرجاس الشيطان • والإنسانية والشعب والقوم والقومية إذا اتخذ شيء منه إلها معبودا بالباطل على النحو المبين • ومن أكبر الطواغيت المعبودة من دون الله عقل الإنسان إذا اتخذها إلها من دون الله بأن يفعل كل ما يأمر به وإن كان مخالفا لأمر الله. ومن ذلك تعطيل النصوص الثابتة من القرآن والسنة بزعم أنها تُخالف العقل، بل إنما تُخالف عقولهم السقيمة الحقيرة المخطئة، والمنهج السليم منهج السلف وهو ﴿...أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ (النور)، وهو قبول الدين لثبوت صحته بأدلة لا تحصى، ومعناه قبول القرآن بلا تحريف وقبول كل ما يثبت عن النبي ﷺ كما هو، وإن كان الواحد منا لا يُحيط بكل ما فيه علما، والاعتراف بالجهل والخطأ والنقصان، والله أعلم كم من الفلاسفة الذين عانوا من هذا المرض أوقعهم في الهاوية والعياد بالله.

١٤ - باب قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ...﴾

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ (٥١) **أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا** (٥٢) ﴿ (النساء).

الطاغوت يُؤْمَنُ به ويُكْفَرُ • رُوي أن هؤلاء أحبار اليهود<sup>١</sup> • فأَتَمَّ آمنوا بالطاغوت • إنما قالوا لمشركي قريش هذا لاسْتِمَالَتِهِمْ إلى نُصْرَتِهِمْ فأجابوهم يومَ الأحزاب • قالوه مع علمهم بِبُطْلَانِهِ ومع علمهم بأن محمداً ﷺ رسولُ الله وأنه جاء بالحق • ومع ذلك، ولو علموا من الحق ما علموا، فهذه المعرفة لا تنفعهم شيئاً ولا تجعلهم مسلمين إلا عند من فاق قوله في الإيمان والكفر قولَ الجهمية شناعةً وبطلاناً • فقوَّهم المذكور في الآية مُستوجبٌ لعنة الله وهو قولٌ مكفَّرٌ فلن تجد لهم نصيراً.

<sup>١</sup> وقد تبين قبلُ أنهم يَدْخُلُونَ في معنى الطاغوت بلا ريب.

## ١٥ - باب التحاكم إلى الطاغوت إيماناً به وعبادةً له من دون الله

من وقع منه التحاكم إلى الطاغوت حقيقة<sup>١</sup> فهو مشرك لا يمكن أن يكون مسلماً. وبهذا يظهر بطلان قول من يُجيز هذا الشرك في حالاتٍ غير الإكراه. قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠)﴾ (النساء).

<sup>١</sup> فالمراد هنا هو وقوع حقيقة التحاكم وأن يكون الفعل صريحاً في دلاليته عليه، لا ما قد يُدخله في التحاكم بعض من ليس له فهمٌ لحدود الألفاظ والمعاني. فالتحاكم له حقيقة كما أن الشرك له حقيقة، ومن لم يعرف حقيقتيهما أدخل فيهما ما ليس منهما ويكفر بعض الناس بحجة أنه تحاكم مع أنه لم يتحاكم في نفس الأمر.

ومن ذلك أن هناك فرقاً بين الاستعانة بالكافرين والاستنصار بهم وبين التحاكم إلى الطاغوت. فحقيقة التحاكم هي طلب فصل الخصومة من الطاغوت بتحكيم شرع الطاغوت. فإن وقع هذا الطلب صريحاً كان شركاً أكبر بإجماع المسلمين. أما إن لم يكن صريحاً بل محتملاً فيختلف الحكم عن ذلك.

فالكلام هنا هو الكلام على الأصل وهذا الأصل مجمّع عليه، ولا يجوز أن يخالفه أحد من المسلمين، أما تنزيل الأصل على الصور المعيّنة فقد يقع فيه اختلاف.



يزعمون أي يقولون ما لا يُوافق الحق • إرادته التحاكم إلى الطاغوت كفر أي الإرادة المجردة عن الفعل • فكفر من تحاكم إليه بالفعل أولى • وكفر المتحاكم إليه أولى من السابق وأكبر منه لأنه سبب في كفره • أنه قد تحقق أمرهم بالكفر بالطاغوت قبل • قد كشف الله أمر من زعم إيمانه وهو يتحاكم إلى الطاغوت وكذبهم في زعمهم • بل كشف أمر من أراد ذلك دون التحقيق • إرادته أمر قلبي يعلمه الله وقد يظهر للناس بتصريح المرید مثلاً فيستلزم حكماً من قبلهم، أما المتحاكم والمتحاكم إليه فكفرهما ظاهر وأولى • والآية تتناول كل ما يدخل تحت عمومها حتماً ولا تترك مجالاً للتلاعب والتأويل الفاسد • ويؤكد المقول ما ورد في سبب نزولها من منافي أراد التحاكم إلى رجل يهودي فذلك الرجل طاغوت • وهو مجرد تأكيد كما في الآية السابقة، أما إثبات هذه الحقائق في الآية قطعاً إلا لمن أعرض عن الكتاب وقد نبه إلى ذلك قبل في بيان أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

فكل من تحاكم إلى الطاغوت فهو مشرك، لأن التحاكم إليه إيمان به، ويدل على ذلك: • أن التحاكم عبادة لأن الله أمر به، وكل ما أمر الله به فهو عبادة، ومن صرفها لغير الله فهو مشرك • أن من أراد التحاكم إلى الطاغوت فإن الله أنكر إيمانه بالقرآن وجميع الكتب المنزلة، ومن لم يؤمن بها فلا يكون مسلماً أبداً، ومن ليس بمسلم فهو مشرك مؤمن بالطاغوت • أن الله جعل عدم التحاكم إلى الطاغوت هو الكفر به في قوله ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾، فعدم التحاكم إلى الطاغوت كفر به، ومقابل ذلك فإن التحاكم إليه إيمان به بلا شك، وهو كفر بالله، ومن آمن بالطاغوت وعبده ولم يكفر به فهو مشرك • أن الضلال البعيد في الآية هو الشرك الأكبر في سائر القرآن بالاتفاق كما قال تعالى ﴿...وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (١١٦) (النساء) و﴿يَدْعُو مِنْ

**دُونَ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢)** (الحج) • أَنْ مَنْ تحاكم إلى غير الشرع فقد جعل الحكم لغير الله بلا شك، وهذا يجب أَنْ يعلم كلُّ مسلمٍ أنه شركٌ، كما بيّن الله في آيٍ كثيرةٍ مِنْ كتابه ﴿...إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ (٤٠)﴾ (يوسف). • أَنْ مجرد التحاكم إلى الطاغوت كفر، كما أَنْ مجرد الإعراض عن حكم الله كفر، قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣)﴾ (آل عمران)، والآية بذلك رد على مَنْ يشترط وجود المحاكم الشرعية مع الإعراض عنها لكون التحاكم إلى الطاغوت شركاً أكبر. فالله تعالى جعل التحاكم نفسه وصفاً مكفراً ولم يقل في الآية (يريدون أَنْ يعرضوا عن حكم الله ويتحاكموا إلى الطاغوت)، مع ملاحظة أَنْ نفس التحاكم إلى الطاغوت إعراض عن حكم الله.

فتبين أَنَّ مَنْ أجاز التحاكم الصريح<sup>١</sup> إلى الطاغوت بسببِ أَنْ الشريعةَ غيرُ مطبَّقةٍ اليوم، أو لأنَّ المتحاكم لا يطلبُ إلا حَقَّهُ، أنه أجاز الشركَ بغيرِ إكراه. وعلى المسلم أَنْ يعلمَ أَنَّ الشركَ لا يجوزُ إظهاره إلا تحت الإكراه.

---

<sup>١</sup> أي غير استخلاص الحقوق والمظالم ونحو ذلك من الطاغوت على سبيل المعارضة والتورية، وليس معنى ذلك أَنْ مثل هذه الأمور جائزة على كل حال، لكن الذي يهَمُّنا هنا أنه ليس بشرك إلا إذا كان صريحاً.

ويلاحظ أنه ظهر في هذه العصور أناس لا يضبطون أهمَّ ألفاظ الشرع ويخلطون بينها ولا يفقهون الكلام الذي يخرج مِنْ أفواههم، فيصرِّحون بجواز التحاكم إلى الطواغيت والمحاكم الوضعية للضرورة، بل

---...

## ١٦ - باب قوله تعالى ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ...﴾

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠)﴾ (المائدة).

قرأ حمزة ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ﴾ أي خَدَمَهُ الذين يَخْدِمُونَهُ • أي هل أخبركم بشرٍّ مما تظنونَه بنا وهو الأوصافُ المذكورة • إِنَّ عِبَادَةَ الطَّاغُوتِ مذكورةٌ مع لعنةِ الله وِغَضِبِهِ وجعلِهِ منهم القردةَ والخنازيرَ • من عَبَدَ الطَّاغُوتَ ملعونٌ مغضوبٌ عليه شرٌّ مكاناً وأضلُّ عن سواءِ السبيلِ. والله أعلم.

منهم مَنْ يقرّ أنه شركٌ أكبرٌ ويصرّح بجوازِ الشركِ الأكبرِ للضرورة! فَيُنْتَبَهُ إلى أَنَّ مِنَ الناسِ مَنْ يَقْصِدُ ظاهرَ لفظِهِ الذي هو الكفرُ المجمعُ عليه، ومنهم مَنْ قد يَقْصِدُ ما ذُكِرَ مِنَ الأمورِ التي ليستْ مِنْ حقيقةِ التحاكمِ.

## القسم الرابع: شبهات من نصوص القرآن والسنة

### ١ - باب: حديث ذات أنواط

روى الترمذي في سننه:

((حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَخْزُومِيُّ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ سِنَانِ بْنِ أَبِي سِنَانٍ عَنْ أَبِي وَقْدٍ اللَّيْثِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا خَرَجَ إِلَى حُنَيْنٍ مَرَّ بِشَجَرَةٍ لِلْمُشْرِكِينَ يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ يُعَلَّقُونَ عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُمْ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ سُبْحَانَ اللَّهِ هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبَنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَأَبُو وَقْدٍ اللَّيْثِيُّ اسْمُهُ الْحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ وَفِي الْبَابِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ)).

بالمنهج الصحيح الذي هو إرجاع التشابهات إلى المحكمات يظهر جليا ما يجوز في تأويل هذا الحديث وما لا يجوز. وعلى هذا يكون أظهر شيء في البطلان أن يقال (إن بعض الصحابة طلبوا من النبي ﷺ الشرك الأكبر الصريح ومع ذلك اعتبرهم النبي ﷺ مسلمين مؤمنين في ذلك الحين). لكن أصحاب القول الفاسد يحتجون بهذا الحديث على أن من عاش على الشرك الأكبر جهلا فإنه مسلم ظاهرا ومؤمن باطنا. وعلى هذا يمكن عندهم أن يكون كل مشرك مهما فعل من الشرك وأنواعه مسلما مؤمنا بشرط أن يكون جاهلا منتسبا إلى الإسلام.

أما العلماء السابقون فلم يقع هذا في بال أحدهم قط, وإن توهم ذلك بعض الناس من مواضع محتملة من كلامهم. ولو اتبعوا المنهج الصحيح ما أشكل مثل هذا عليهم أصلا. فيما يلي تذكر أقوال العلماء في الحديث دون تفصيل كثير. يمكن أن يفهم هذا الحديث على معنيين, وإن كان الثاني بعيدا جدا, إلا أن بعض أهل العلم المتأخرين ذهبوا إليه.

### فصل: القول الأول: هؤلاء الصحابة ما طلبوا شركا أكبر

أي طلبوا شيئا هو شرك أصغر لا أكبر, فأرادوا أن يطلب النبي ﷺ من الله تعالى أن يجعل لهم شجرة مباركة ليستفيدوا حقيقة من بركة الله<sup>١</sup>.

لكن هذا الطلب مردود من وجوه ولذلك أنكر عليهم النبي ﷺ شديدا وشبه قولهم بقول بني إسرائيل المذكور في القرآن:

• في طلبهم تشابه بالكافرين.

• وكان هذا التشابه في ما يعبد به المشركون غير الله تعالى, فالصحابة أرادوا بركة الله تعالى على وجه طلب المشركين, وهذا لا ينبغي.

---

<sup>١</sup> في هذا الموضع يُخشى الالتباس, فليُنتبه إلى ما قيل هنا. فإن هؤلاء الصحابة ما طلبوا شيئا هو شرك أصغر مع علمهم بتحريمه أو علمهم بكونه شركا أصغرا! بل طلبوا من النبي ﷺ أن يسأل الله تعالى أن يبارك هذه الشجرة. ومثل هذا الطلب ليس شركا في الأصل. فإنهم لم يطلبوا من النبي ﷺ شيئا قد حرمه الله من قبل, فضلا عن أن يستحلوا المحرم أو الشرك الأصغر بعد موت النبي ﷺ. بل سألوه أن يسأل الله أن يشرع لهم ذلك, فليُنتبه.

- لما سبق كان ما طلبوه ذريعة إلى الشرك الأكبر وأن يقع الناس في عبادة الشجرة نفسها، خاصة لأن المطلوب هو الاستعانة ببركة الله من الشجرة على الأعداء في القتال وهذا تتعلق به مشاعر كثيرة.

### مبحث: ما يبين أن هؤلاء الصحابة ما طلبوا الشرك الأكبر

- تشبيه النبي ﷺ قولهم بقول بني إسرائيل ليس معناه التسوية بينهم من كل جهة، فإن كاف التشبيه في العربية تستعمل لبيان الشبه من وجوه، ولا يجب أن يكون تشابهاً من كل وجه، بل قد يكون هذا الشبه في شيء معين دون أمور أخرى كثيرة، وفائدته هنا هو التغليظ وبيان عظم الخطأ.

- لم يذكر في الحديث شيء من الشرك الأكبر وأنه هو السبب لتحريم ما طلبوا، بل كما ذكر فإن المشركين علقوا أسلحتهم على الشجرة ومجرد التعليق ليس شركاً على الإطلاق، وإن أمكن أن يؤدي إليه. فلا يصح أن يدعى أن هؤلاء الصحابة طلبوا الشرك الأكبر مع أنه لا يدل عليه في الحديث شيء صريح ومع إمكان تأويل فعلهم تأويلاً آخر.

### مبحث: القول بأن هؤلاء الصحابة ما عرفوا حقيقة التوحيد في غاية البعد

- القول السابق من أنهم طلبوا الشرك الأصغر أظهر الأقوال. ذلك أنه يكاد لا يتصور أن هؤلاء الصحابة لم يعرفوا حقيقة التوحيد، حتى مع حداثة عهدهم بالإسلام، لأن المشركين أنفسهم علموا تماماً ما يدعو إليه محمد ﷺ، فعلموا أن معنى الشهادة هو أن لا معبود حق إلا الله وأنه لا بد في ذلك من الجحود بجميع الآلهة المعبودة عندهم وترك كل عبادة لغير الله. فإن أبا جهل وكفار قريش إنما عادوا النبي ﷺ لهذا الأمر، وقد مضت الإشارة إلى أن المشركين علموا معنى الإسلام تمام العلم وسيأتي شيء من التفصيل. بل لو كان

معنى لا إله إلا الله هو أن لا خالق إلا الله، لكان أبو جهل وأبو لهب مسلمين مؤمنين، لأنهما وغيرهما من المشركين آمنوا بذلك. فأبي جهل اعتزى كثيراً من المنتسبين إلى الإسلام اليوم وهم لا يعرفون من معنى الشهادة ما عرفه أعداء الرسل؟!

فعامة العرب فهموا الخطاب لفصاحتهم وقد انتشرت دعوة الإسلام بينهم كما روى أحمد في مسنده:

((حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ ابْنِ خُثَيْمٍ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ قَالَ مَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ عَشَرَ سِنِينَ يَتَّبِعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ بِعُكَاظٍ وَمَجَنَّةٍ وَفِي الْمَوَاسِمِ بِمَنَى يَقُولُ مَنْ يُؤْمِنِي مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي وَلَهُ الْجَنَّةُ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ أَوْ مِنْ مُضَرَ كَذَا قَالَ فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ فَيَقُولُونَ اخْذِرْ غُلَامَ قُرَيْشٍ لَا يَفْتِنُكَ وَيَمْشِي بَيْنَ رِحَالِهِمْ وَهُمْ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ)).

فإن كان المشركون كما وصف فأولى أن يعلم معنى الإسلام من أسلم منهم مثل هؤلاء الصحابة، خاصة مع كون النبي ﷺ بينهم ووجودهم بين غيرهم من الصحابة الذين كانوا على الإسلام منذ سنوات.

### فصل: القول الثاني: هؤلاء الصحابة طلبوا الشرك الأكبر

أي أنهم طلبوا من النبي ﷺ إلها آخر ليعبدوه جهلاً منهم بجرمة ذلك، ومعناه أنهم قبلوا الإسلام دون فهم أهم شيء فيه وهو التوحيد، فحدث أنهم طلبوا الشرك الأكبر دون علم أنه يناقض الإسلام مناقضة تامة.

والقول بهذا في غاية البعد وأراه خطأ في فهم الحديث، لكن يظهر لي أن بعض أهل العلم من متأخري الدعوة النجدية كانوا يقولون بهذا، والله أعلم.

فعند هذا التأويل للحديث تلاحظ أمور:

• المذكورون في الحديث ليسوا جميع الصحابة أو جميع من خرج مع النبي ﷺ إلى حنين أو جميع من أسلم قبيل ذلك بعد فتح مكة، فلم يكن الطلب من جميع هؤلاء، ومن ظن ذلك فهو في غاية البعد ولا دليل عليه.

فحتى عند من يفسر الحديث بهذا القول، لا يمكن إلا أن صدر هذا من بعض الناس منهم.

• الصحابة المذكورون انتسبوا إلى الإسلام، وكانوا قبل هذا القول مسلمين في الظاهر باتفاق، ولا بد أنهم كانوا يُعتبرون مسلمين قبل ذلك لأنه لم يرَ أحدٌ منهم فعل الشرك أو ما يدل على جهلهم بالإسلام. فلو ظهر ذلك منهم قبل لما حصلت قصة الحديث أصلاً.

• فإلى حين هذا القول لم يعلموا حقيقة الإسلام - على هذا الفهم للحديث. ومعناه أنهم لم يدخلوا في دين الله باطنًا، فلم يحققوا أصل الإيمان حتى مع كونهم مسلمين في الظاهر في أعين الناس.

• هؤلاء الصحابة أسلموا من قبل وخرجوا مع النبي ﷺ، وهذا يبين أنهم قالوا هذا القول عن جهل تام بحقيقته لا عن عناد وكراهة للدين أو نفاق، إذ لو كانوا منافقين لما قالوا ذلك في وجه النبي ﷺ. لذلك ذكر العلماء كثيراً أن هؤلاء كانت لهم نية صالحة وأنهم إنما طلبوا ما طلبوا عن جهل تام منهم بحقيقة طلبهم.

وإذا فهم الحديث هكذا فهناك سؤال: إذا ظهر بهذا القول حقيقة جهلهم بالإسلام فلا بد أن يترتب عليه حكم الردة، فلماذا لم يذكر هذا في الحديث.



## مبحث: سبب عدم ذكر حكم الردة في الحديث

إذا فعل الإنسان ما يفسد إسلامه فإنه يرتد بذلك عن دين الله<sup>١</sup>، ولا يؤثر في هذا كونه مؤمناً في الباطن قبل ذلك من عدمه. الردة تترتب عليها أحكام، خاصة التعريف والاستتابة، والسؤال هو لماذا لم تذكر في الحديث الردة والاستتابة. وعند من يقول بهذا القول يمكن أن يجاب عن هذا الاعتراض بما يلي:

### الاحتمال الأول

إن الصحابة ما دخلوا في الإيمان إلى ذلك الحين، لكنهم كما سبق حتى على هذا القول ما فعلوا ذلك عنادا بل قصدوا اتباع الرسول والحق، لكن لما ظهر بهذا الطلب أنهم لم يحققوا الإيمان قبل ذلك، تراجعوا مباشرة عن قولهم. ومعناه أنهم أصبحوا في ذلك الموقف نفسه محققين للإسلام الظاهر وللايمان الباطن، ولذلك ليس لاستتابتهم معنى في الحقيقة لأنهم قد رجعوا عن قولهم فوراً.

---

<sup>١</sup> لكن قد يقال هنا إنه لم تحصل ردة أصلاً على رأي من يقول بأن الردة هي الرجوع إلى الكفر بعد الإسلام الحقيقي من الفقهاء، وهؤلاء لم يتم لهم إسلام في حقيقة الأمر، بل ظهر بقولهم أنهم إنما كانوا مسلمين حكماً لا حقيقة.

بعبارة أخرى، مع أنه ظهر في ذلك الموقف أنهم لم يفهموا الإسلام حقيقة، لم يلحقهم حكم الردة<sup>١</sup>. وليس معنى ذلك أنهم إذا نُظر إلى الماضي كانوا مؤمنين في الباطن.

أما مسألة هل للعلم بأنهم ما حققوا الإيمان الباطن من قبل تأثير على بعض الأحكام الشرعية، فهذه مسألة أخرى فقهية، وليس هذا محل الكلام فيها. فهؤلاء العلماء الذين ذهبوا إلى هذا القول إنما أرادوا هذا المعنى والله أعلم، أي أن حكم الردة في تلك الحالة لا يلحقهم ولذلك لم يُذكر الأمر في الحديث، فلا يقال هنا إن أهل العلم هؤلاء حكموا للمرتدين بالإسلام فإنهم كفار مثلهم، ولا يقول مثل ذلك إلا جهولٌ غالي لا يفقه ما يقرأ.

### الاحتمال الثاني

النبي ﷺ استتابهم، إلا أن الراوي لم يذكر هذا في الحديث. هذا وإن ظهر بعيدا لكن لا يُجزم بعدم وقوعه، فإن أهل العلم احتجوا بهذا في أحاديث أخرى، ومسألة هل هذا الاحتمال كبير أم ليس بكبير لا بد فيها من النظر في كل حديث بعينه. أما هنا فقد سبق أن مجرد القول بأن هؤلاء الصحابة ما فهموا الإسلام إلى ذلك الحين وطلبوا الشرك الأكبر جهلا بعيد جدا، فلو قيل إن النبي ﷺ استتابهم أيضا مع عدم ذكر ذلك في الحديث فإنه أبعد، والله أعلم.

---

<sup>١</sup> وبقيت المسألة التي سبق ذكرها والتي اختلف أهل العلم فيها. فينبغي التفريق بين اسم الردة وحكم الردة، فيقال لا يحكم بحكم الردة على الجاهل جهلا معجزا. وأما مسألة اسم الردة فمبناها على معنى الردة في الفقه على ما إشير إليه قبل قليل.

لكن قد يقال هنا أيضا بأن هذا الحديث فيه دليل على كيفية التعامل مع من أظهر الإسلام وحكم له به وكان حديث العهد ثم ظهر منه جهل بحقيقته.

### فصل: تنبيه إلى خطأ في فهم هذا الحديث

بعض الناس أخطئوا في فهم كلام بعض أهل العلم من الدعوة النجدية، وسبب ذلك مرة أخرى اتباع كلام أهل العلم دون الرجوع إلى الكتاب والسنة، فيقع الخطأ في الفهم وتبنى عليه أصول سيئة.

وهكذا استدل بعض الناس بهذا الحديث على أن من طلب الشرك الأكبر جهلا يكون مسلما مؤمنا حقيقة إلا إذا فعل الشرك الذي طلبه فعلا، وهذا لا يقوله إلا جاهل بكليات هذا الدين، إذ من جهل معنى لا إله إلا الله وطلب الشرك جهلا لا يمكن أن يكون مؤمنا في الباطن، حتى إذا حُسب مسلما في الظاهر. فإذا طلب المرء الشرك الأكبر الصريح فقد تبين بذلك أنه ليس محققا للإسلام ولا للإيمان في ذلك الحين.

### فصل: نتيجة التأويل الفاسد لهذا الحديث

الذين يحتجون بهذا الحديث على إسلام بعض المشركين يقولون:

(الصحابة طلبوا الشرك الأكبر، ومن طلب الشرك فإنه كفاعله، والنبي ﷺ لم يكفرهم بذلك، ومعنى ذلك أنهم كانوا مسلمين، فدل على أن المسلم قد يطلب الشرك ويعتقده ويفعله جهلا ويكون مع ذلك مسلما).

ومن يظن مثل ذلك لا يفهم التوحيد حقيقة، وتلزم من هذا الفهم السقيم جميع اللوازم الباطلة التي ذكرت من قبل. فعليه يمكن أن يعبد المرء أكثر من إله واحد، وفي نفس

الوقت هو مسلم مخلص حنيف عابد لله وحده، وأن يكون كافرا بالطاغوت تاركا لعبادته وعابدا له في نفس الوقت، وسواء في كل ذلك أيشرك بالله خالقين آخرين أو ولدا أو يعبد عيسى عليه السلام أو يعبد البقر، لأن كل هذه الأمور شرك، وعلى قولهم يمكن أن يكون مسلما مع تحقق كل نوع من أنواع الشرك الأكبر.

لكن الحقيقة هي أن البراءة من كل هؤلاء الأصناف من المشركين من أوجب الواجبات في دين الله تعالى. وهذا أيضا من الأمور التي تنقلب عند هؤلاء، إذ من أشرك بالله فإنه عندهم مسلم ظاهرا مؤمن باطنا تلزم موالاته على قولهم، بل ليس عليه أي شيء وليس فاسقا لأنه مسلم معذور بالجهل. أما من تبرأ من هؤلاء المشركين وكفرهم وحقق الإسلام بذلك فإنه عندهم من الخوارج المكفرين للمسلمين<sup>١</sup>.

---

<sup>١</sup> وقد بين أهل العلم فساد من يجعل الموحدين خوارج بسبب براءتهم من المشركين، كما يرد كثيرا في كلام أئمة الدعوة النجدية على سبيل المثال.

## ٢- باب: حديث سجود معاذ بن جبل رضي الله عنه

أخرج ابن ماجه في سننه:

((حَدَّثَنَا أَزْهَرُ بْنُ مَرْوَانَ حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ أَيُّوبَ عَنِ الْقَاسِمِ الشَّيْبَانِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى قَالَ لَمَّا قَدِمَ مُعَاذٌ مِنَ الشَّامِ سَجَدَ لِلنَّبِيِّ ﷺ قَالَ مَا هَذَا يَا مُعَاذُ قَالَ أَتَيْتُ الشَّامَ فَوَافَقْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِأَسَاقِفَتِهِمْ وَنَطَارِقَتِهِمْ فَوَدِدْتُ فِي نَفْسِي أَنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ بِكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَا تَفْعَلُوا فَإِنِّي لَوْ كُنْتُ أَمْرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِغَيْرِ اللَّهِ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لَزَوْجِهَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا تُؤَدِّي الْمَرْأَةُ حَقَّ رَبِّهَا حَتَّى تُؤَدِّيَ حَقَّ زَوْجِهَا وَلَوْ سَأَلَهَا نَفْسَهَا وَهِيَ عَلَى قَتَبٍ لَمْ تَمْنَعَهُ)).

هنا يحتجون مثل ما سبق في حديث ذات أنواط, فيزعمون أن معاذاً رضي الله عنه لم يفهم الإسلام وأنه عبد رسول الله ﷺ بسجوده هذا. وهدفهم إثبات أن المرء قد يعبد غير الله وأنه مع ذلك يبقى مسلماً.

قبل المناقشة لا بد من ذكر أن أهل العلم اختلفوا في صحة هذا الحديث عموماً وفي وقوع هذا السجود خصوصاً, فيصير أبعد وأبعد أن يدعى أن هذا الحديث يمكن أن يعطل أساس الدين وأن المشرك قد يكون مسلماً.

لكن لو سلمنا بوقوع هذا السجود تنزلاً فإن من فهم التوحيد لا بد أن يرد هذا الفهم السقيم للحديث دون تردد وأن يجزم أن للحديث تأويلاً آخر. ولذلك نجد أهل العلم في هذا الحديث أيضاً قد ذكروا تأويلات له, لكن مرة أخرى لم يخطر في بال أحد منهم أن

معاذا عبد النبي ﷺ وأشركه بالله تعالى الشرك الأكبر وأنه مع ذلك كان مسلماً مؤمناً وبقي على إسلامه.

فبقولهم الباطل يتوصلون إلى أن الناس اليوم الذين يعبدون القبور عشرات السنين جهلاً منهم بحقيقة الإسلام، أنهم مسلمون مؤمنون. ذلك لأن الحديث حسب فهمهم يبين أن عباد القبور هؤلاء في كل هذه الفترة مسلمون. ويزيدون على ذلك أن كل من يكفر عباد القبور هؤلاء وحكم عليهم بأنهم مشركون خارجون من الإسلام أنه من فرقة الخوارج المارقين.

## فصل: الفهم الصحيح لهذا الحديث

إن معاذا لم يقصد بهذا السجود عبادة النبي ﷺ، لما يلي:

• السجود ينقسم إلى قسمين، سجود عبادة وسجود تحية، وهذا النوع من التحية كان معروفاً في بعض المجتمعات آن ذاك. ونحو هذا السجود هو الذي أمر الله به الملائكة، والذي فعله أهل يوسف عليهم السلام أمام يوسف. وهذان مذكوران في القرآن صراحة. لكن هذا السجود حرم في شريعة محمد ﷺ مطلقاً، ولو سلمنا بصحة الحديث يظهر منه أن معاذا بن جبل رضي الله عنه لم يعلم بهذا التحريم في وقت هذه القصة أو أن التحريم لم يحصل قبل هذه الحادثة أصلاً.

## فصل: ما يترتب على القول الباطل

يلزم المخالف ما يلي:

• إن أهل يوسف عليهم السلام عبدوا يوسف مثل معاذ على قولهم. وإذا أنكر المخالف ذلك على أنه بيّن الفساد وأنه لن يزعم مثل هذا يقال: لماذا لا يمكن لمن يتبع منهجهم أن يحتج كما يحتجون هم عند قول معاذ، فيقول إن أهل يوسف جهلوا مناقضة الشرك للإسلام فكانوا مسلمين مشركين معذورين بالجهل.

ولا شك في غرابة هذا الأمر، إذ كيف يقال مثل هذا في النبي يعقوب عليه السلام؟ لكن إذا أقر المخالف بهذا ويرد هذا الضلال عن نفسه، فقد أقر أن هناك نوعا آخر من السجود غير الشرك الأكبر، وإن كان الأمر كذلك فهو حجة ملزمة عليهم في حديث معاذ كذلك.

• ومثله يمكن أن يقال عند سجود الملائكة المذكور في القرآن، بل هو أعظم لأن الله تعالى أمر الملائكة بهذا السجود، فهل يدعي أحد منهم أن الله تعالى أمر بالشرك؟

• وأخيرا يجب عليهم مثل هذا القول الفاسد في حديث معاذ نفسه. فلما قال النبي ﷺ ((فَإِنِّي لَوْ كُنْتُ أَمِيرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِغَيْرِ اللَّهِ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا))، هل أراد بذلك ((فَإِنِّي لَوْ كُنْتُ أَمِيرًا أَحَدًا أَنْ يَعْبُدَ غَيْرَ اللَّهِ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَعْبُدَ زَوْجَهَا))؟

فأقل ما يجب أن يقال حسب رأيهم أن هذا المعنى محتمل، ولو جاءهم أحد على منهجهم في الاستدلال بهذا التفسير القبيح للحديث لثبت أن المراد بالسجود هاهنا أيضا الشرك الأكبر، فأنى لهم أن يردوا عليه؟ فإنه إنما يتبع منهجهم في الاستدلال.

ويظهر ما سبق عن هذا الحديث أيضا من تأمل الروايات التالية:

أخرج أحمد في مسنده قال:

((حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ حَدَّثَنَا أَيُّوبُ عَنِ الْقَاسِمِ الشَّيْبَانِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى قَالَ قَدِمَ مُعَاذُ الْيَمَنِ أَوْ قَالَ الشَّامَ فَرَأَى النَّصَارَى تَسْجُدُ لِبَطَارِقَتِهَا وَأَسَاقِفَتِهَا فَرَوَّأَ فِي نَفْسِهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَحَقُّ أَنْ يُعْظَمَ فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ رَأَيْتُ النَّصَارَى تَسْجُدُ لِبَطَارِقَتِهَا وَأَسَاقِفَتِهَا فَرَوَّأْتُ فِي نَفْسِي أَنَّكَ أَحَقُّ أَنْ تُعْظَمَ فَقَالَ لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِرُجُلِهَا وَلَا تُؤَدِّي الْمَرْأَةُ حَقَّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهَا كُلُّهُ حَتَّى تُؤَدِّيَ حَقَّ زَوْجِهَا عَلَيْهَا كُلُّهُ حَتَّى لَوْ سَأَلَهَا نَفْسُهَا وَهِيَ عَلَى ظَهْرِ قَتَبٍ لَأَعْطَتْهُ إِيَّاهُ)).

((حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ هِشَامٍ حَدَّثَنِي أَبِي عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ عَوْفٍ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ أَحَدِ بَنِي مُرَّةَ بْنِ هَمَّامٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى عَنْ أَبِيهِ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ إِنَّهُ أَتَى الشَّامَ فَرَأَى النَّصَارَى فَذَكَرَ مَعْنَاهُ إِلَّا أَنَّهُ قَالَ فَقُلْتُ لِأَيِّ شَيْءٍ تَصْنَعُونَ هَذَا قَالُوا هَذَا كَانَ تَحِيَّةَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَنَا فَقُلْتُ نَحْنُ أَحَقُّ أَنْ نَصْنَعَ هَذَا بِنَبِيِّنَا فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ إِنَّهُمْ كَذَبُوا عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ كَمَا حَرَّفُوا كِتَابَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَبَدَلَنَا خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ السَّلَامَ تَحِيَّةَ أَهْلِ الْجَنَّةِ)).



### ٣- باب: شبهة (إن الله تجاوز عن الخطأ لمن كان من أمة محمد ﷺ)

المخالف يريد أن يقول بهذا إن المسلم إذا أخطأ وعبد غير الله تعالى، فإنه معذور لأن الله تعالى تجاوز عن خطأه بسبب أنه من أمة محمد ﷺ، ويحتجون في ذلك بقوله تعالى:

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ (٥)﴾ (الأحزاب).

وكذلك يحتجون بحديث ((إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ))<sup>١</sup>.

المشكلة في هذا الاحتجاج ظاهرة لأقل الناس علماً وعقلاً، وهي أن المشرك الجاهل بحقيقة الإسلام ليس من أمة محمد ﷺ أصلاً حتى يُتجاوز عن خطأه. والظاهر ممن احتج بمثل هذا أنه لا يفهم التوحيد حقيقة، لأنه يظن أن أمة محمد - والمراد هنا أمة التوحيد - هم الذين ينتسبون إليه حتى إن لم يحققوا حقيقة الإسلام بل أظهروا الشرك الصريح، مع أن المراد في الحديث أمة محمد الذين هم أمة التوحيد والذين يدخلهم الله جنته كلهم. ثم كيف يقال إن الله تعالى يغفر لهم الشرك الأكبر لأنهم من أمة محمد وقصدوا اتباعه بينما قال تعالى في القرآن - الذي هو كتاب أمة محمد ﷺ - صراحة بأنه لا يغفر أن يشرك به؟!!

فهذه الشبهة واهية ولا تحتاج إلى بيان أكثر لمن قرأ ما سبق من الأدلة في هذا الكتاب وفهمه.

<sup>١</sup> أخرجه ابن حبان والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنه.

---

إلى هنا ذُكرت بعض الأمثلة من الشبهات اكتفاء بهذا القدر، وإن أحدث أصحاب هذا القول المنتشر اليوم سيلا من الشبهات. منها احتجاجهم بحديث الرجل الذي أمر أبناءه بتحريق نفسه بعد موته، مع أن هذا الرجل كان محققا للتوحيد كما جاء في بعض روايات أحمد. ومنه أيضا قولهم بأن المكروه كذلك يفعل الشرك الصريح ولا يصير مشركا، فدلّ في فهمهم العجيب على أن المرء قد يفعل الشرك الأكبر ويبقى على إسلامه، مع أن المكروه استثناه الله تعالى لأنه لم يفعل الشرك مريدا قاصدا له، فيرجع الإشكال في ذلك إلى عدم فهم حقيقة الإكراه وحقيقة الشرك واحتجوا بغير ما ذكر من كلام متشابه لبعض أهل العلم.

## القسم الخامس: البراءة من المشركين لا يتم الإسلام إلا بها

والمراد بالبراءة من المشرك أن يعلم أنه على باطل وأن حقيقة التوحيد ليست قائمة به بخلاف المسلم وأن يبغض فعله وأن يبغضه لما فيه من هذا الشرك. وهذا العلم لا يكون المرء مسلماً إلا به<sup>١</sup>. فإذا لم يعلم أن المشرك مباين للمسلم وأن حقيقة الإسلام زائلة عنه فهذا يدل دلالة واضحة على أنه لا يعرف معنى الإسلام في شيء، ومن لم يعلم حقيقة الإسلام فإنه يستحيل إسلامه كما سبق.

ولا شك أن الأصل أن من تحققت فيه حقيقة الشرك يشتق له اسم المشرك<sup>٢</sup> كما أن من تحققت فيه حقيقة الإسلام - التي هي عبادة الله والبراءة من الشرك الأكبر - فإنه يشتق له اسم المسلم. فالشرك والإسلام نقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان، فكما أن حقيقة الإسلام والشرك متغايرتان فكذلك الاسمان متغايران. فإذا تحقق الشرك زال الإسلام والعكس، وإذا كان مشركاً استحال أن يكون مسلماً، بلا أدنى شك.

---

<sup>١</sup> لا شك أن ما ذكر هنا قاعدة عامة مطردة، ومفهومها قاعدة عامة في العذر وهي أن من فهم حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله ثم توقف في بعض المعينين من المشركين لأسباب لا تنافي هذا العلم تم له أصل التوحيد ويشمله العذر في الأصل. مثل من يحكم لمشرك معين بالإسلام لجهله بحاله أو تأويله له، وتأتي أمثلة لهذا في فصل خاص.

<sup>٢</sup> نعم، هذا هو الأصل بلا شك، وسيأتي شيء من التفصيل بهذا الشأن في آخر الكتاب.

وهذا يقتضي بداهة أن من علم معنى الإسلام فلا بد أن يزيل عن المشرك اسم الإسلام ووصفه. ومن شك في هذا فهو إلى معالجة عقله أحوج منه إلى تعليمه. فلو رأينا إنسانا قائما أو راكبا أو شاربا ثم يأتي آخر ويدعي أن الجالس قائم والراكب ماشٍ والشارب نائم، فلا يشك عاقل أن هذا الرجل لا يعرف معنى القيام والركوب والشرب قطعا.

### باب: تأكيد أهمية البراءة من المشركين في الكتاب والسنة

قد بين الله تعالى أن جميع الأنبياء تبرؤوا من أقوامهم، فقال:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦)﴾

فَمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ فَقَلْبُهُ أَنْ يَقْتَدِيَ بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْكُفْرِ بِعِبَادِ الطَّاغُوتِ وَالْبِرَاءَةِ مِنْهُمْ. وَالْمَرَادُ هُنَا أَنْ يُخْرِجَ الْمُسْلِمُ الْمَشْرُكَ عَنْ دِينِهِ، أَمَا أَنْ يَصِلَ الرَّحْمَ أَوْ أَنْ يُحْسِنَ إِلَى الْجَارِ وَغَيْرُ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ جَزَمَ بِأَنَّهُ لَيْسَ مُسْلِمًا فَلَيْسَ هَذَا مُرَادًا هُنَا، وَلَا يُخَالِفُ عَالَمٌ أَنَّ مِثْلَ هَذَا الْإِحْسَانِ إِلَى الْكَافِرِ لَا يُنَافِي أَصْلَ الْإِيمَانِ، كَمَا يَتَبَيَّنُ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي بَعْدَ الْمَذْكُورَةِ سَابِقًا:

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧) لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩)﴾ (الممتحنة).

قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾ (المجادلة).

فالمشركون المحادون لله ورسوله لا تجد من يوادهم وهو مع ذلك يؤمن بالله واليوم الآخر، وهذا ينطبق حتى إن كانوا من أقرب الناس إليه.

﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣)﴾ (التوبة).

• إن الأنبياء جاءوا أقوامهم وكان أول ما فعلوا أن أظهروا لهم البراءة كما دل عليه ظاهر آية الممتحنة التي سبق ذكرها قريبا أن إبراهيم عليه السلام تبرأ منهم قبل أن تبرأ من آلهتهم. وتقدم البراءة من العابدين على المعبودات تأكيد شديد لوجوب البراءة من المشركين ولأهميتها وشدة تعلقها بلا إله إلا الله.

وهذا ما فعله جميع الأنبياء مع أقوامهم كما دل عليه **﴿والذين معه﴾** في هذه الآية أي الأنبياء وهذا أمر معلوم مقرر عند أهل العلم أن ما وصف في هذه الآية هو ملة جميع الأنبياء.

ثم بيّن الله تعالى أنّ المرء إن كان يرجو الله واليوم الآخر فلا بد أن يتأسّى بهذه الأسوة الحسنة، أما من كان لا يرجو الله واليوم الآخر وتولى فذلك هو الكافر والله غني عنه **﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦)﴾** وفي كل هذا دلالة واضحة على كفر من لم يتبرأ من المشركين.

• ثم تدبر أن المذكور في الآية إنما هو ملة إبراهيم، الملة الحنيفية، وهو دين جميع الأنبياء بلا خلاف، وإليك شيئاً من التفصيل:

دين إبراهيم أن يعبد الله وحده، فإذا فعل ذلك وخلص من الشرك الأكبر فهو على دين إبراهيم. فهؤلاء الحنفاء وخاصة الذين عاشوا في زمن الفترة أي في زمن اشتد فيه الجهل بالإسلام، كانوا لا يعرفون إلا أن الآلهة باطلة. فبلغهم أن دين إبراهيم أن لا يُعبد إلا الله. فالذي وجب عليهم علمه والعمل به هو وجوب ترك الشرك وما يلزم منه من وجوب البراءة من المشرك، لأنه على دين آخر، ليس على دين إبراهيم. وكذلك نجده في الأحاديث التي تروي لنا ما فهمه الناس قبل البعثة من دين إبراهيم، أنه تركّ الشرك. فقال اليهودي وكذلك النصراني لزيد بن عمرو بن نفيل - كما سبق - **﴿قَالَ زَيْدٌ وَمَا الْحَنِيفُ قَالَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَا يَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ﴾**.

• وكذلك من الأدلة الواضحة الدلالة على أن دين جميع الأنبياء لا بد فيه من البراءة من المشركين أن الله تعالى عدة مرات في القرآن بيّن دين إبراهيم وختمه دائما بوصف إبراهيم بمثل قوله **﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾**. ولم يقل ولا مرة (وما كان مشركا) أو نحوه. ومعنى هذا في لغة العرب كما بيّن الطبري رحم الله في الآية ١٠٨ من سورة يوسف **﴿وما أنا من المشركين﴾** ، يقول: **وأنا بريء من أهل الشرك به ، لست منهم ولا هم مني.**

ثم أمر الله تعالى نبينا محمدا ﷺ باتباع ملة إبراهيم. وكان يكفي ذلك في بيان أننا أمروا أن لا نكون من المشركين، لكنّ الله تعالى بيّنه مرة أخرى تصرّحا، فأمر نبينا محمدا ﷺ أن يقول ذلك القول كما قاله إبراهيم ﷺ. وكذلك كان يكفي لبيان المقصود أن يبيّنه فقط من كلام نبينا ﷺ وأن يأمره باتباع ملة إبراهيم، فيُعرف أنّ دين إبراهيم عليه السلام هو أنّ لا يكون من المشركين كما قاله محمد ﷺ، لكنه بين الأمرين تصرّحا. فبيّن دين إبراهيم عليه السلام وبين دين محمد ﷺ وبين دين كلّ واحدٍ منهما بالآخر لما أمر أحدهما باتباع ملة الآخر، وهذا تأكيد شديد وبيان واضح لمن وفقه الله إليه.

• إن الله تعالى قد كفّر من يتولّى المشركين في عدّة مواضع من كتابه الكريم، وكثرتها نفسها من أدلّ الدلائل على عظمة الأمر وأهميته في الدين. وأوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله كما جاء في الحديث وقد أشار إليه البخاري في ترجمة كتاب الإيمان وفي أول الكتاب وهذا كله مبين في موضعه في كتب أهل العلم.

**﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١)﴾** (المائدة).

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨)﴾ (آل عمران). وليس من التقية أن يعتبرهم مسلمين على دينه في نفسه كما يجب أن يفهمه بعض الضلال، فمن انتفى بغض الكافرين من قلبه فإنه كافر بلا شك وبلا خلاف.

• سورة الكافرون: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾ فمن تأمل هذه السورة عَرَفَ أَنَّ البراءة من المشرك من أشدَّ الأمور تأكيداً في القرآن مطلقاً. فهل هناك تأكيد وتكرار مثل هذا؟ ويجب التنبيه إلى أن الله تعالى، لم يذكر هذا فحسب، بل أَمَرَ النَّبِيَّ ﷺ والمسلمين أن يقولوه للكافرين أنفسهم. فهذا أمر من الله للمسلمين أن يُعلموا المشركين، بل أن يُؤكِّدوا لهم أنهم برآء منهم، وأنهم ليسوا على دين واحد أبداً.

• وهذا السابق من أمر الله تعالى المؤمنين بأن يصرِّحوا للمشركين أنهم على دين آخر وأن المسلم منهم بريء يتكرر في القرآن. قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨)﴾ (الأنبياء). والقرآن كله يصرِّح لهم بهذا ويأمر بتصريحه، وهكذا يتحقق علم المسلم بأن البراءة من المشرك من أوجب الواجبات عليه، وأنَّ مَنْ حَكَمَ عَلَى مَنْ عَبدَ غيرَ اللَّهِ بأنه على دين الإسلام أنَّ لديه خلافاً في معرفة معنى الإسلام أو أنه علِّمه ولم يعمل به عناداً.

• وتدبر حديث عمرو بن عبسة الحنيف الذي سبق ذكره، فإنه لم يكن يعلم أن الإسلام هو إخلاص العبادة علماً نظرياً فحسب، بل كان يعلم جيداً كغيره من الحنفاء من هو



على دينه ومن ليس على دينه. لذا قال ((أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلَالَةٍ وَأَنَّهُمْ لَيَسُوْا عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَعْبُدُوْنَ الْأَوْثَانَ)).

• بل يتضح من آيات كثيرة في القرآن أن المشركين أنفسهم فهموا من قول لا إله إلا الله وجوب البراءة من المشركين، لأنهم فهموا معنى رسالة الأنبياء أي فهموا الإسلام العام والخطاب الموجه إليهم.

كما قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩)﴾ (الأعراف).  
فأجابوا: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣)﴾ (نوح).

مما يدل دلالة واضحة على أنهم فهموا معنى لا إله إلا الله وأن المطلوب منهم ترك الآلهة مطلقا وإفراد الله تعالى بالعبادة لأن الله وحده يستحق العبادة. فلا بد لكل عاقل أن يقر أن المشركين فهموا أن كل من يقبل هذه الشهادة فيحققها علما وعملا أنه ليس منهم بل أنه خرج من دينهم خروجا تاما إلى دين آخر جديد.

ومعنى ذلك أنهم فرقوا تماما بين الشرك والإسلام وبين المشرك والمسلم، وإن لم يقبلوا الإسلام لأنفسهم. فالعجيب أن من المنتسبين إلى الإسلام اليوم بل من المتصدرين لتدريسه من لا يفقه هذا الأمر فيظن أن من يفعل الشرك الأكبر الصريح المجمع على كونه شركا أكبر قد يكون من المسلمين محققا لحقيقة الإسلام.

وقال هود عليه السلام لقومه: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠)﴾ (هود)

فكان جوابهم: ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا

نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣)﴾ (هود)

ومثل هذا في القرآن كثير جدا.

• يتبين ما ذكر أيضا مما رواه البخاري عن سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ:

((أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ بْنَ هِشَامٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي طَالِبٍ يَا عَمُّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْزِضُهَا عَلَيْهِ وَيَعُودَانِ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَا وَاللَّهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَكُنْ عَنْكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ {الآيَةُ)).

فالمشركان في الحديث علما تماما أن أبا طالب لو تلفظ بهذه الكلمة خرج بذلك عن ملتهم خروجا تاما وبرئ منها ورغب عنها وأنه بالمقابل يدخل في دين جديد.

• معلوم أن الكفر بالطاغوت شرط في صحة الإسلام, وكذلك قد أمرنا الله تعالى في كتابه أن نقتدي بالأنبياء عليهم السلام الذين قالوا لقومهم ﴿كفرنا بكم﴾, وقد سبق أن المذكور في الآية إنما هو ملة إبراهيم عليه السلام. والكفر بالمشركين إنما هو البراءة التامة منهم.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي...﴾ (إبراهيم)، أي إن الشيطان يتبين له في ذلك الموقف أن الإصرار على ما هو عليه من دعوة الناس إلى عبادته وإلى ترك عبادة الله والإشراك به يوجب له العذاب لا محالة، فيحاول أن يتبرأ من كل من أطاعه وأشركه بالله براءة تامة، وفي القرآن أنه لا يجد لهذه البراءة في هذا الموقف الشديد إلا أن يقول: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)﴾ (إبراهيم).

ولا شك أن الشيطان عليه لعنة الله لو وجد كلمة تعبر عن البراءة من إشراك الناس بإياه بالله أشد من الكفر بعبادتهم، لاختارها ليكون أدل على المقصود. وهذا يوضح لك أن الكفر بالمشركين الذي أمرنا الله تعالى به هو أشد ما يكون من البراءة.

#### باب: شبهة من قوله تعالى ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ...﴾<sup>١</sup>

احتج أناس بهذه الآية أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا طائفتين في جماعة من المنافقين فمنهم من كفروهم وأراد قتالهم ومنهم من توقف فنزلت الآية. هناك روايات مختلفة في سبب نزول الآية:

<sup>١</sup> النساء: ٨٨

روى أحمد في مسنده:

((عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ أَنَّ قَوْمًا مِنَ الْعَرَبِ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ فَاسْلَمُوا وَأَصَابَهُمْ وَبَاءُ الْمَدِينَةِ حُمَاهَا فَأَرْكَسُوا فَخَرَجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ فَاسْتَقْبَلَهُمْ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ يَعْنِي أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا لَهُمْ مَا لَكُمْ رَجَعْتُمْ قَالُوا أَصَابَنَا وَبَاءُ الْمَدِينَةِ فَاجْتَوَيْنَا الْمَدِينَةَ فَقَالُوا أَمَا لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ فَقَالَ بَعْضُهُمْ نَافَقُوا وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَمْ يُنَافِقُوا هُمْ مُسْلِمُونَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ (الآية)).

((عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ إِلَى أَحَدٍ فَرَجَعَ أَنَسٌ خَرَجُوا مَعَهُ فَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِرْقَتَيْنِ فِرْقَةٌ تَقُولُ بِقِتْلَتِهِمْ وَفِرْقَةٌ تَقُولُ لَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ (الآية)).

قال ابن كثير في تفسير الآية:

(عن ابن عباس: نزلت في قوم كانوا بمكة، قد تكلموا بالإسلام، كانوا يظاهرون المشركين، فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم، فقالوا: إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس، وأن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة، قالت فئة من المؤمنين: اركبوا إلى الجبناء فاقتلوهم، فإنهم يظاهرون عليكم عدوكم. وقالت فئة أخرى من المؤمنين: سبحان الله! أو كما قالوا: أقتلون قوما قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به؟ أمّن أجل أنهم لم يهاجروا ولم يتركوا ديارهم تستحل دماؤهم وأموالهم. فكانوا كذلك ففتين، والرسول عندهم لا ينهى واحدا من الفريقين عن شيء فأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَيْنِ﴾).

رواه ابن أبي حاتم، وقد رُوي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعكرمة ومجاهد والضحاك وغيرهم قريب من هذا.

وقال زيد بن أسلم، عن ابنِ لسعد بن معاذ: أنها نزلت في تقاويل الأوس والخزرج في شأن عبد الله بن أبيّ، حين استعذر منه رسول الله ﷺ على المنبر في قضية الإفك<sup>١</sup>. وهذا غريب، وقيل غير ذلك).

وعدم صحة هذا الاحتجاج ظاهر جدا إذ الكلام على منافقين ومجرد هذا بيّن في أن كفرهم لم يكن صريحا وظاهرا، والروايات المذكورة تؤكد هذا. ثم اعترض بعض من يحتج بهذه القصة بادعاء أنه نزل قبل هذه الحادثة نص في بيان كفر هذه الطائفة. وهذا الاعتراض ظاهر البطلان للجاهل قبل العالم، إذ هذا بحاجة إلى دليل صريح وأين هذا الدليل. ثم كيف يزعم رجل أن الصحابة كان بأيديهم نص صريح في كفر هذه الطائفة بأعيانهم ومع ذلك توقفوا فيهم؟! هذه الدعوى من أعجب الأمور. بل لو كان عند إحدى الطائفتين من المؤمنين دليل صريح على كفر هؤلاء لأوردوه على من خالفهم وألزمهم به.

ثم لا يجوز أن يكون النبي ﷺ بينهم يسكت على عدم تكفيرهم من كان كفره معلوما ظاهرا عليه دليل صريح من الوحي، فدل على أن أمرهم كان خفيا محتملا. وإن زاد المعترض بأنهم تأولوا هذا النص المزعوم - على افتراض وجوده تنزلا - قيل: لو كان الأمر

---

<sup>١</sup> هو عند ابن أبي حاتم قبل الحادث المذكور سابقا.

هكذا رجع الأمر إلى أصله، إذ هؤلاء الصحابة ما شكوا في أمر هؤلاء المنافقين إلا لعدم وضوح كفرهم لديهم ولكونه محتملا للتأويل عندهم، فتم المقصود. فالخلاصة أنه لا علاقة البتة بين هذا الأمر ومن جعل المشرك مسلما.

### باب: شبهة أن من لم يكفر تارك الصلاة يمكن عذره

مرادهم أنه لو كانت البراءة من المشرك - على المفهوم الذي سبق تقريره - شرطا لا يتم الإسلام إلا به للزم من ذلك أن أهل العلم الذين توقفوا في تارك الصلاة كفار أيضا. هذا - على فهمهم المعوج - لأن تارك الصلاة كافر إلا أنه خالف في ذلك بعض أهل العلم. بل يحتاج بعضهم أن (إقام الصلاة مع العلم بوجوبها من أصل الدين وبالمقابل فإن ترك الصلاة مع العلم بوجوبها ناقض لأصل الدين. والتارك مستكبر عن طاعة الله والاستكبار عن طاعة الله أسوأ من الشرك في العبادة. وبهذا يصير مثل المشرك تماما).

**والجواب:** أن هذا من أعظم الباطل والتلبيس الذي لا يصدر مثله إلا عن قلب زائف غارق في الهوى. فالفرق من أظهر الأمور، إذ يقال:

• إن فعل الصلاة مع العلم بوجوبها ليس من أصل التوحيد الذي دلت عليه الشهادة في شيء وإن كان تركها كفرا. فأصل الدين وأساس الملة هو شهادة أن لا إله إلا الله. ثم هناك أفعال وتروك يأتي نص في كونها كفرا مخرجا من الملة. ولو كانت الصلاة من أصل التوحيد الذي لا يحصل الإسلام إلا به لكان الصحابة رضي الله عنهم في أول أمرهم مشركين قبل الأمر بالصلاة، وليس كذلك، كما أن من عرف التوحيد ثم جهل النصوص في وجوب الصلاة مع وجودها جهلا معتبرا فإنه مسلم معذور. فهذه المقدمة الأولى ليست مسلما بها في شيء بل هي من أبطل الباطل.

• ونظيره الادعاء بأنه مستكبر عن طاعة الله. فهذا نفسه يحتاج إلى دليل زائد على التوحيد ووقع الاختلاف في عين هذا الأمر. فلو أقر هؤلاء العلماء بأن التارك مستكبر عن طاعة الله ما ترددوا في تكفيره. وقد ذكر العلماء إجماع الصحابة على تكفير تارك الصلاة كسلا وثمانونا ولا يخالف أحد من الأمة في تكفير التارك استكبارا. بل إنما لكون الاستكبار أمرا خفيا قد يقع الخلاف في حق بعض المعينين التاركين للصلاة، هل تركوها كسلا وثمانونا أو استكبارا. فهذا ليس مسلما به أيضا.

• ثم - وهذا يتفرع عما سبق - إن كون ترك الصلاة كفرا هذا نفسه وقع فيه الاختلاف بين المتأخرين. فالمقدمة الثالثة ليست مسلما بها أيضا. إذ كيف يقال (إن التارك كافر وهؤلاء لم يكفروه)؟! بل هم لا يوافقونك على كون الترك كفرا واستكبارا عن طاعة الله أصلا.

فلا يخفى بطلان هذا الاحتجاج وأنه لا مناسبة لذكره البتة في من يجعل المشرك مسلما. كيف يجعل الخلاف في أمر يحتاج أصلا إلى إثبات كونه كفرا بنص زائد على التوحيد مثل الخلاف في التوحيد الذي لا وجود للإسلام إلا به؟<sup>١</sup>

---

<sup>١</sup> ومن الشبهات في هذا الباب أيضا أن الخوارج كفّروا كثيرا من المسلمين وتبرؤوا منهم، ومع ذلك كانوا معذورين في بدعتهم في الأصل، فينبغي بالمقابل - هكذا يدعون - أن من جعل بعض المشركين مسلمين أن يكون معذورا مثلهم، وسيتبين فيما تبقى من الكتاب هذا الأمر وغيره مما يحتج به بعض الناس.

## القسم السادس: بيان الكفر والتكفير وإطلاقات العلماء المختلفة لهما وموانع التكفير وبعض الشبهات في هذا الباب

باب: معنى كلمة التكفير وأن قول بعض أهل العلم (لا نكفر من عبد صنم كذا وكذا) لا يعني الحكم بإسلامه البتة

(التكفير) هو مصدر (كَفَّرَ يُكَفِّرُ)، فهو الاسم الدالّ على معنى هذا الفعل. وتبيّن من قبل أن الفعل الثلاثي إذا زيدت في أوله همزة في بنية الكلمة فإنه يغير معناه قياساً إلى معنى (جَعَلَ يَفْعَلُ)، أي يصير الفعل اللازم بهذا متعدياً. وكذلك الأمر إذا ضُعِفَ الحرف الأوسط من الفعل الثلاثي مثل (كَفَّرَ) و(كَفَّرَ)، فإن الفعل اللازم يصير بهذا التغيير متعدّياً.

ومعلوم أن فِعَلَ (كَفَّرَ) معناه (جَعَلَهُ يَكْفُرُ)، والمراد إما جعلٌ بالحقيقة بأن يحاول أن يصرف الآخر إلى الكفر وأن يعينه عليه، ومن ذلك يمكن أن يقال الأبوان يكفّران الولد بتربيتهما له وهو قليل الاستعمال، أو أن يكون جعلاً بالمعنى دون الحقيقة أي أن يجعله كافراً في اعتباره له وبلسانه، والمراد أن يحكم عليه بالكفر وينسبّه إليه وهذا هو المقصود غالباً.



## فصل: المراد من (الكُفرِ المعذَّبِ عليه)

كثير من الناس اليوم يظنون إذا قال العالم (لا أكْفُر من يفعل كذا وكذا) فإنه قصد (ليس كافراً بل هو مسلم) على كل حال، وهذا خطأ كبير. فقلوه (لا أكْفُرُه) ليس حكماً بإسلامه في شيء.

بل المراد من نفي الكفر في كثير من هذه الأقوال إنما هو نفي نوع خاص من الكفر وهو الكفر المعذَّب عليه، لا نفي الكفر عموماً. فالتعذيب في الدنيا والآخرة من الأحكام المترتبة على الكفر، وأهل العلم يريدون في كثير من المواضع نفي حكم الكفر لا نفي الكفر من كل وجه. وقد سبق أن الاسم قد يثبت على شخص مع تخلف بعض الأحكام المتعلقة بهذا الاسم، فيمكن أن الشخص كافر باعتبار مع أنه ليس كافراً الكفر المعذَّب عليه، ذلك لأن التعذيب لا يقع إلا بشرط بلوغ الرسالة، لكن هذا لا يعني أن كل من لم يعذَّب يكون مسلماً مؤمناً.

فإذا قال عالم عن مشرِك ما (لا نكْفُرُه) فمعناه (نرى أن هذا المشرك معذور بجهله وأنه لا يعذب، بل يمتحن يوم القيامة).

بعض الناس لا يريدون أن يقبلوا هذا الأمر لجهلهم ويصرون على تعطيل أصل دين الإسلام ببعض كلام أهل العلم، ولو عرضوا كلام أهل العلم على الكتاب والسنة ما أشكل عليهم عدم فهمهم لحقيقة ذلك الكلام ولقالوا (إما أن هذا القول خطأ أو أننا أخطأنا في فهمه، لكن هذا لا يغير محكمات الكتاب والسنة بحال)، إلا أنهم يقيسون الكتاب والسنة على بعض كلام أهل العلم الذي يظهر لهم أنه مؤيِّد لرأيهم.

لكن مستحيل أن هؤلاء من أهل العلم قصدوا أن هذا المشرك مسلم عندهم لجهله, وذلك من وجوه تذكر هنا باختصار:

• هؤلاء العلماء أقوال أخرى محكمة تبين مرادهم تماما, فكيف يجوز أن يصر المرء على فهمه إذا كان قائل هذا القول نفسه قد بين مراده منه؟

• تلاميذهم وأتباعهم بينوا مرادهم كثيرا, فهل يعقل أن أناسا بعد قرون أعلم بقول هذا العالم من هؤلاء؟ وكثيرا ما يكون هؤلاء هم أبناء العالم وأحفاده, فمن ادعى اليوم أنه أفهم من هؤلاء لكلام آبائهم وأجدادهم ففيه ما فيه من الكبر والبعد عن الواقع.

• لا يجوز القول بأن هؤلاء العلماء جعلوا عباد الأصنام مسلمين, لأن معنى ذلك أنهم لم يفقهوا حقيقة الإسلام, وهذا بهتان وافتراء عليهم. فكيف يُذهب لمثل هذا التأويل الفاسد لكلامهم إن كان له محمل آخر؟ بل كيف إذا بين هؤلاء أنفسهم أنهم أرادوا خلاف ذلك؟

## فصل: معنى الكفر في اللغة يتضمن هذا المعنى

ظاهر أن أهم معنى في الكفر هو ما يكون بعد قيام الحجة ببلوغ الرسالة. ذلك لأن المقصود من الخلق ومن الرسالة هو امتحان الناس في الدنيا وأن يتبين المؤمن فيها من الكافر.

أما الامتحان يوم القيامة فإنه حالة استثناء لمن لم تقم عليه الحجة في الدنيا. ولذلك نجد معنى الكفر بعد قيام الحجة ببلوغ الرسالة في المعنى اللغوي لكلمة الكفر، قال ابن منظور<sup>١</sup>:

(الْكُفْرُ: جُحُود النعمة وهو ضِدُّ الشكر وقوله تعالى ﴿إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ﴾ أي جاحدون وكَفَر نَعْمَةً الله: يَكْفُرُهَا كُفُورًا وَكُفْرَانًا وَكَفَرُ بِهَا: جَحَدَهَا وَسَتَرَهَا وَكَافَرَهُ حَقُّهُ: جَحَدَهُ وَرَجُلٌ مُكْفَّرُ النعمة مع إِحْسَانِهِ وَرَجُلٌ كَافِرٌ: جَاكِدٌ لِأَنْعَمِ الله مُشْتَقٌّ مِنَ السَّتْرِ وَقِيلَ لِأَنَّهُ مُغَطَّى عَلَى قَلْبِهِ).

فتبين أن الكفر متعلق بالعلم في الأصل، لأن المرء لا يمكن أن يجحد شيئاً وأن ينكره ويستره إلا إذا بلغه وعلم به. وليس عجيباً أن معنى الكفر في أصله في اللغة يتضمن هذا المعنى. وصحيح أن الشرع قد أتى في أمور باصطلاح خاص، لكن اللفظ لا يغير في ذلك تغييراً تاماً عن أصله في اللغة، بل تزداد معانٍ وشروط أو تنقص. هذا واضح لأن اللفظ إنما اختير لما له من معنى.

---

<sup>١</sup> في لسان العرب مادة كفر.

## باب: متى يعذر بالجهل في إنكار بعض أخبار الشرع وحقيقة هذا العذر

بما سبق يفهم أن من أنكر آية من كتاب الله تعالى جهلا بشوقها فإنه لم يكفر بإنكاره هذا، مع أن إنكاره نفسه مخالف لكتاب الله تعالى، لذا سمي العلماء نفس هذا الإنكار كفرا أحيانا. لكن هذا المنكر لا يكفر حتى يتبين له أنه مخالف للقرآن ثم يجحد به ويستتر حقيقته. فتبين أن العلم شرط لوقوع هذا النوع من الكفر. فالجهل في إنكار بعض النصوص مانع من موانع التكفير، لأنه يمنع من وقوع الكفر نفسه. وإنكار هذا المنكر هو في الحقيقة تحليل المحرم وتحريم الحلال، مما يبين سبب ذكر أهل العلم العذر بالجهل في معرض الكلام على جحد بعض أخبار الشرع وتحليل الحرام وتحريم الحلال.

ولا شك من وجود أصل العذر بالجهل في الشريعة، فإنه مذكور صراحة في كتاب الله، ولا ينكر هذا الأصل مطلقا إلا أهل البدعة. إلا أنه تقع المبالغة من الجهة الأخرى كذلك من أناس يعذرون في كل شيء بالجهل دون استثناء.

فمن استحل الخمر مثلا، لأنه جهل بتحريمه جهلا معتبرا، فلا شك أنه يحرم أن يُخرج من الإسلام ويُجعل كافرا بهذا الاستحلال، هذا معلوم ببديهة العقل.

ثم إذا ردَّ حكم الله بتحريم الخمر وجحدته مع العلم التام به<sup>١</sup> فإنه كافر بإجماع أهل العلم. أما إذا لم يعرفه أصلاً فكيف يقع في الكفر من جهة الجحود؟ لكن هل هذا يبرّر أن يُجعل مسلماً معذوراً بالجهل من اعتقد وجود خالقين أو أن الله ولدا؟

### باب: موانع التكفير والخطأ في فهمها

بما سبق يظهر خطأ من يعترض (إذا أمكن أن يكون الإنسان معذوراً بالجهل إذا كفر، ألا يعني ذلك أنه يمكن أن يكون معذوراً إذا أشرك بالله أيضاً؟ والصواب أن الإنسان إذا كفر حقيقة الكفر المستلزم للخلود في النار، فإنه لا يمكن أن يكون معذوراً بحال. فمن الضلال البين أن يُظن أن يأتي مثل هذا الكافر يوم القيامة لكن يغفر الله تعالى له كفره لمانع من الموانع، بل بطلان هذا معلوم من الدين بالضرورة، إذ كان معروفاً لدى المسلمين أن الله تعالى لا يغفر لمن كفر به.

فالكافر أي الشخص الذي تحقق كفره حقيقة لا يصير مؤمناً بموانع التكفير، لكن بعض الناس يظنون أن موانع التكفير تحوّل الكافر مؤمناً. والصواب أن موانع التكفير تمنع من

---

<sup>١</sup> والمراد هنا العلم بوجود الدليل ثم الفهم الصحيح لهذا الدليل. فإن جهل النص أصلاً فظاهر، وإن عرف النص لكن أشكل عليه فهم معناه فأساء فهمه وتأوله تأويلاً فاسداً، فإنه معذور بهذا إن كان تأويله محتملاً. فتبين أن التأويل في الحقيقة نوع من الجهل.

وقوع الكفر أصلا. والمشكلة عند كثير من الناس اليوم أنهم لم يفقهوا معنى التوحيد أصلا، ولذلك أشكل عليهم فهم حقيقة موانع التكفير، فيحتجون بما لا يفهمون حقيقته، لذا يحتجون عن فاعل الشرك الأكبر العابد مع الله إلهها آخر بحجة أن بعض المسلمين يكفرون كذلك بالله تعالى ولا يخرجهم هذا من الإسلام، بينما الحقيقة أن هؤلاء المسلمين المعذورين لا يكفرون أصلا، بل يقع منهم قول أو فعل لا يكون كفرا إلا مع العلم والقصد، بحيث لو كان هذا الشخص فعل ذلك علما وقاصدا لكفر به بلا شك.

ومن فهم هذا تبينت له حقيقة الأسباب التي يعذر الإنسان بها في بعض الأفعال والأقوال مثل النائم والمجنون والولد والسكران والمخطئ.

فالنائم إذا تكلم بالكفر فإنه لم يقصد القول حقيقة، وكل من انتفى قصده فإنه معذور بهذه العلة وليس محاسبا على فعله، لأن قوله كعدمه، أو قصده ليس معتبرا في الشرع لأنه ليس مكلفا أصلا كالولد مثلا.

لكن من عبد غير الله تعالى قاصدا وعلما فإنه لا يمكن أن يعذر في ذلك، ومن العجيب أن يقاس من فعل فعل الشرك قاصدا له ومريدا على من لم يقصد الفعل أصلا.

فمثلا الرجل الذي ذكره النبي ﷺ في الحديث لما قال:

((... ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ أَخْطَأُ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ)).<sup>١</sup>

<sup>١</sup> رواه مسلم عن أنس رضي الله عنه.

فلا شك أن هذا الرجل لم يشرك بالله في الربوبية. فكيف يأتي الآن أناس وقيسون على هذا الرجل من فعل الشرك الصريح قاصدا له ويدّعون أن الحديث يدل على عذر المشرك وكونه مسلما لجهله؟ فعلى هذا القول العجيب كان الرجل المذكور في الحديث معذورا حتى لو قال هذا القول نفسه قاصدا مريدا معتقدا أنه هو الرب وأن الله تعالى عبده. فهل من كانت له بقية من إيمان وعقل يمكن أن يدّعي مثل هذا الجنون؟

وكذلك من أوضح الأمور أن ناقل الكفر لا يكفر، مع أنه يذكر الكفر صراحة. ولو كان كل من نقل شيئا كفر به، لما وجد مسلم على وجه الأرض لأن القرآن فيه نقل قول الكافرين. ومثله في البدهة أن جاهل الحال لا يكفر. فالأعمى إذا سجد أمام الصنم جاهلا بوجود الصنم أمامه، فلا يدعي كفره أجهل الناس.

فما أعظم خفة عقل من يحتج بهذه الأمور فيقول: (هذا الأعمى عبد الصنم من دون الله، وكان مع ذلك معذورا، فإنه أشرك بالله ومع ذلك غفر الله تعالى له)؟

وأكثر جنونا منه أن يُستنتج بعد هذا القول: (فلذلك يكون من عبد الصنم حقيقة وأقر بإشراكه كذلك مسلما معذورا بجهله)!

## القسم السابع: الأعدار الممكنة لمن أخطأ في شأن البراءة من المشركين والتحذير من الغلو في التكفير

### باب: جهل الحال وتأويله

أما جهل الحال بأن لا يعلم أن ذلك الشخص يعمل الشرك أصلاً فهذا من أبين الأمور، إذ ليس أحد مكلفاً أن يتبرأ ممن لم يعرفه أصلاً أو ممن لم يعلم وقوعه في الشرك.

وأما تأويل الحال فالتأويل نوع من الجهل. فإنه يعرف ذلك المشرك بعينه وبلغه شيء من أعماله وأقواله، لكن تبقى هناك بعض الاحتمالات فيتأول فعله وقوله ويصرفه عن ظاهره بأمر من الأمور وقد يتأول له بأمر مظنون ومرجوح اتباعاً للهوى، لكنه ما دام لا يقر بأن الشخص المحكوم عليه يفعل هذه الأفعال أو يقول هذه الأقوال، فالأصل فيه العذر. فقد يدعي أنه مكره أو كبير السن لا يدري ما يقول وهكذا.

ومنه أن يشك في نسبة القول إليه أصلاً. وأن يحسن به الظن لحسن سيرته ولأنه بين خلاف هذا القول أو ما يقتضي خلافه فيقول إن فلانا لا يظن به إلا أنه قال هذا غفلة وأنه تراجع عنه ونحو هذا.



## باب: قصد الأفعال والأقوال المحتملة وتسميتها شركاً أكبر

مثاله أن يقول (من فعل شيئاً من أفعال الشرك الأكبر مسلم معذور لجهله)، لكن مقصوده ما قد يحتمل أن يكون شركاً أكبر وأن يكون غيره مثل الطواف حول القبور أو السجود لبعض الأشخاص، بغض النظر عن احتمال عذر هذه الأصناف في الواقع، فالكلام هنا كله في إمكان العذر في الأصل.

وأولى مما ذكر قول الرجل (يفعل بعض الشريكيات) أو (بعض الأعمال الشريكية) أو (شيئاً من مظاهر الشرك الأكبر)، فحمل هذا من كلام بعض المشايخ على ما هو شرك أكبر في الحقيقة خطأ، خاصة إذا تبين من سائر كلامهم أنهم لا يقصدون ظاهر قولهم هذا.

## باب: تسمية بعض المشركين مسلمين بقصد المنتسبين إلى الإسلام مع قرينة تدل عليه

منه أن يقول مثلاً (كثير ممن دخل الإسلام من التتار يكون معه أصنام يعبدها لجهله) وما يشبهه، فالمقصود بدخول الإسلام ونحوه في مثل هذه الأقوال هو إعلانهم لإسلامهم وانتسابهم إليه وقبولهم له في الأصل، وهذا ظاهر، وليس المقصود أنهم مسلمون حقيقة مع كونهم يعبدون غير الله.

وأوضح من هذا إذا قال عن بعض البلاد التي انتشر فيها الشرك وهو ظاهر وغالب فيها بأنها بلاد المسلمين أو من العالم الإسلامي أو بلاداً إسلامية أو أن سكانها مسلمون، فكل هذا المراد منه الانتساب، ثم يقال مثل هذا أيضاً نظراً لما يظهر في هذه البلاد من

شعائر الإسلام أو نظرا لتاريخ البلد وأن الأصل فيه أنه كان للمسلمين حتى انتشر فيه الشرك استصحابا لهذا الأصل.

## باب: خطأ إلحاق المشرك الجاهل بالمسلمين في الظاهر اسما وحكما مع نفي حقيقة الإسلام عنه

ذكر في المقدمة واقع الناس في الإسلام اسما وحكما وحقيقة، وأشار هناك إلى أنه يتصور بعض الأقوال التي هي - على فرض أن يقول بها بعض الناس - نادرة جدا. وهذه الأقوال تتلخص كما يلي:

أن يقول (حجة الله قائمة على الناس عموما اليوم، لكن من لم تقم عليه الحجة حقيقة فإنه يلحق بالمسلمين في الاسم أو في بعض أحكام الدنيا الخاصة بالمسلمين أو في بعض أحكام الآخرة، مع العلم بأنه لم يحقق الإسلام حقيقة وأنه ليس موحدا وأنه يمتحن يوم القيامة مع أنه يعامل في الدنيا معاملة المسلمين). وهذا الأقوال إن وجدت فلا تخطر إلا ببال من درس الشريعة، بخلاف من لم يدرس فإنه لا يتصوره أصلا.

وهذا الباب بحاجة إلى شيء من التفصيل والتدقيق، ولينبه بداية إلى أن المقصود من هذا التفصيل ليس هو بيان أن هذه الأمور التالية كلها أعذار مقبولة في الواقع، بل سيظهر أنها في الجملة لا تتصور في الواقع أصلا. لكن المراد ذكر هذه الأمور لأنها تخطر ببال بعض الناس، وكذا لأن التفصيل يحدد الأمور ويفصل بعضها عن بعض.

## فصل: فالضلال المتصور في هذا الباب يمكن أن يصنف إلى الدرجات

### التالية

١- من يسمي المشرك الجاهل مشركا وينفي عنه اسم الإسلام وحقيقته, لكن يلحق به بعض أحكام الدنيا الخاصة بالمسلمين مثل دفنه في مقابر المسلمين ووراثته.

٢- أن يسميه مشركا لكن يلحق به كذلك بعض الأحكام الخاصة بالمسلمين المتعلقة بالآخرة. ومنه أن يستغفر له بعد موته وأن يصلي عليه. وهذا لا يكون إلا لاحتمال بعيد جدا وهو أنه يقصد بذلك طلب التوفيق لهذا الجاهل في امتحانه في عرصات القيامة<sup>١</sup>. وهذا الاحتمال ينبغي أن يجعل في الأصل مهما لا بعده, وإن كان له وجه في النظر, إذ النهي عن الاستغفار للمشركين عند كثير من أهل العلم هو بعد انقطاع التكليف بالموت, فإذا مات المشرك لا يجوز الاستغفار له, أما قبل ذلك فهو جائز ومعناه طلب التوفيق والهداية له. والذين لم تبلغهم رسالة رسول - عند من يرى وجودهم وصحة الأحاديث الواردة فيهم - لم ينقطع تكليفهم بالموت, بل يكلفون في امتحانهم في عرصات القيامة.

---

<sup>١</sup> وبهذا يفهم أن هذا الأمر الخاص وإن كان يتعلق بأحكام الآخرة باعتبار فإنه يلحق بأحكام الدنيا باعتبار أنه يقع في حالة هؤلاء قبل انقطاع التكليف. فلعن الأحسن أن يقال هنا إذا جعل شيئا من أحكام المسلمين في الآخرة للمشرك لا يحتل عذره, إنما يحتل العذر أصلا إذا جعل له بعض أحكام الدنيا وما في حكمها لتعلقه بها.

٣- من يسميه مسلماً مع العلم والإقرار بأنه ليس محققاً للإسلام في الحقيقة، أي يلحقه بالمسلمين في الاسم مع نفي حقيقة الإسلام عنه. وهذا مثل أن يقول (نلحقهم بالمسلمين في الاسم لكن لا نستغفر لهم ولا نضحى عنهم ولا نحج عنهم ولا يدخلون الجنة مع شركهم بل يختبرون يوم القيامة).

### فصل: مثال تقريبا لفهم كيف قد تحصل مثل هذه الضلالات

رجل جاهل غير متمكن من العلم بحقيقة الإسلام إلا أنه ينتسب إليه، ثم يقدر على الرحلة وتقام عليه الحجة فيتوب ويسلم إسلاماً صحيحاً. ويظهر في حينه أن أباه الذي كان مثله مات قبل قليل على ضلاله. فالسؤال الذي قد يعرض للقاضي مثلاً هل الأب يدفن في مقابر المسلمين وهل يرثه ابنه؟ فمثل هذا القاضي قد يقول خطأ بأنه يبقى اسم الإسلام على الأب ظاهراً ويجري عليه بعض أحكام المسلمين مثل ما ذكر.

وقد يستدل على مثل هذا القول الفاسد مثلاً بأن المنافقين كفار في نفس الأمر ومع ذلك أمر الله أن نعاملهم معاملة المسلمين<sup>١</sup>، وبأن النبي ﷺ أمر بمعاملتهم معاملة المسلمين مع إطلاع الله له بالوحي على كفرهم لأن الأحكام إنما تعلق بأمر ظاهرة. فمثل ذلك الأب كان يعيش بين الناس وهم يظنونهم مسلماً طيلة حياته ولم يتبين حقيقته إلا بعد موته.

وقد يقول أيضاً بأن الله أمرنا أن نلحقهم بالمسلمين في الدنيا اسماً وحكماً وإن امتحنهم الله يوم القيامة لعلم وحكمة عنده. وقد يكون من ذلك أن الله يعلم منهم ما كانوا

---

<sup>١</sup> مع عدم ثبوت نفاقهم قضاءً، إذ لو ثبت كفر أحدهم قضاءً يحكم عليه بالردة وإن ادعى الإسلام.

يعملون لو قامت عليهم الحجة كأطفال المسلمين فقد روى بعض أهل العلم الإجماع على أنهم في الجنة، بل وردت مثل هذه المسائل في كلام أهل العلم على أطفال المشركين أيضا. وحتى لو قال هم يكلفون في عرصات القيامة ويمتحنون يمكن حمله على أن الله تعالى يعلم بنجاحهم في ذلك الامتحان ولم يجعل من أطفال المسلمين إلا من يعلم بأنه سيكون حسن القلب ناجحا مسلما في ذاك الامتحان، وأن الله فعل هذا رحمة بالآباء المسلمين الذين يجتمعون بأولادهم في الآخرة.

فيحتج بمثل هذا على أساس أن هذه الأمور ليست ممتنعة عقلا ولا يستحيل أن يأمر الله تعالى بمثل هذه المعاملات فإنه قد فعله في شأن المنافقين مع علمه بأنهم كفار.

## فصل: مناقشة أمور قد يستدل بها على أن هذا القول يشمل نوع من العذر في الأصل<sup>١</sup>

مبحث: قصة عبد بن زمعة في افتراق الأسماء والأحكام أحيانا  
أخرج البخاري:

((عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ كَانَ عَثْبَةُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ عَهْدَ إِلَى أَخِيهِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ أَنَّ ابْنَ وَلِيدَةَ زَمْعَةَ مَنِي فَاقْبِضْهُ قَالَتْ فَلَمَّا كَانَ عَامَ الْفُتْحِ أَخَذَهُ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ وَقَالَ ابْنُ أَخِي قَدْ عَهْدَ إِلَيَّ فِيهِ فَقَامَ عَبْدُ بْنُ زَمْعَةَ فَقَالَ أَخِي وَابْنُ وَلِيدَةَ

<sup>١</sup> المراد أنه يتصور في الذهن وأما هل هذا أو بعضه ممكن أو موجود في الواقع فمسألة أخرى.

أَبِي وُلِدَ عَلَى فِرَاشِهِ فَتَسَاوَقَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ سَعْدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ابْنُ أَخِي كَانَ قَدْ عَاهَدَ إِلَيَّ فِيهِ فَقَالَ عَبْدُ بْنُ زَمْعَةَ أَخِي وَابْنُ وَلِيدَةَ أَبِي وُلِدَ عَلَى فِرَاشِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ لَكَ يَا عَبْدُ بْنُ زَمْعَةَ ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ ثُمَّ قَالَ لِسُودَةَ بِنْتِ زَمْعَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ احْتَجَبِي مِنْهُ لِمَا رَأَى مِنْ شَبْهِهِ بِعُتْبَةَ فَمَا رَأَاهَا حَتَّى لَقِيَ اللَّهَ))

فحكم النبي ﷺ أنه ابن زمعة لأن الولد للفراس مع أن شبهه بعتبة أشعر بأن الحقيقة مخالفة لهذا الحكم. ثم هذا الحكم اقتضى أن يكون أختا لسودة وأن لا تحتجب منه بناء على ذلك ومع ذلك جعل النبي ﷺ حكمهما ليس حكم الأخوين في المحرمية والاحتجاب بأن أمرها بالاحتجاب منه. ومعناه أنه لهذه الأسباب ليس أختا لسودة رضي الله عنها من كل وجه.

وهذه القصة حق، لكنها بعيدة عما نحن فيه. ففي هذه القضية وقع تعارض بين دليلين هما الشبه بعتبة وولادته على فراش زمعة، فكان لا بد من ترجيح أحد الدليلين وأن يلحق بهذا أو بهذا. أما المشرك فليس فيه أي تعارض، بل كونه مشركا من أظهر الأمور. فغاية الأمر أن يكون هناك شيء من المناسبة بينها وبين المشرك الجاهل في عدم لحوق حكم القتال به، وهذا حق.

**مبحث: من أثبت اسم الزوجية وحكمها مع انتفاء حقيقتها**

قال تعالى عند الكلام على من رمى زوجته بالزنا وما يتعلق باللعان:

﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ...﴾ (النور ٦).

فحصل اختلاف إذا رمى المطلقة طلاقاً بائناً، فمنهم من نفى اللعان لأنها ليست زوجته في هذه الحالة، ومنهم من حققه إلحاقاً بها حكم الزوجية، وقول ثالث إذا تزوجت غيره فلا، وإلا فنعم<sup>١</sup>.

لكن الذي يظهر لي أن من حقق اللعان إنما ألحق حكم الزوجية بالمطلقة ولا حاجة إلى أن يسميها زوجة ليدخلها في حكم الآية. ذلك أن هؤلاء الفقهاء لو سئلوا هل هي زوجته لنفوه في الأصل، وغاية الأمر أن يقولوا (زوجته حكماً) مخصصين بذلك تلك الحالة المعينة وحكمها. وأما إدخالها في الآية فهو إدخال من جهة الحكم لا من جهة الاسم. وكذلك يقال إن إدخالها في لفظ الآية ممكن على أن لفظ الأزواج يتناول التي هي زوجته حقيقة في الحال والتي كانت زوجته سابقاً.

وحتى عند من يريد إدخالها في لفظ الآية بتسميتها زوجة فإنه يقصد أنها زوجته باعتبار هذه الحالة المعينة وهذا الحكم الخاص لإجراء الحكم على هذه الحالة.

فظهر ظهوراً بيناً أن هذه الحالة إنما هي استثناء لا أصل، وأنه لا مناسبة بين هذه القضية وبين من يجعل نوعاً من المشركين الذين لم تقم عليهم الحجة مسلمين في الاسم مطلقاً أو في جميع الأحكام أو في كليهما معاً. بل كيف بمن يفعل ذلك مع جميع المشركين المعرضين عن الحجة في هذا الزمان مدعياً أن الحجة لم تقم عليهم، فهذا في غاية الضلال.

---

<sup>١</sup> انظر شروح (مراقي السعود) في (فصل في الاشتقاق)، فصاحب النظم ذكره بقوله:

عليه يبنى من رمى المطلقة      فبعضهم نفى وبعض حققه

هذا كله مع ملاحظة أن هؤلاء العلماء كلهم علموا تماما معنى الزوجية ونفوا حقيقتها عن هذه المطلقة. بخلاف عامة من يقول هذا القول اليوم فإنهم ينشؤون على الظن الفاسد أن المشرك من أهل الإسلام إنما فعل ذنبا من الذنوب لجهله، وإن مات على ذلك يدخل الجنة مع سائر المسلمين إذ هو منهم، فيعاقب أو يغفر له كسائر أهل الذنوب. فهؤلاء ليست مشكلتهم في مباحث صعبة في افتراق الأسماء والأحكام بل حقيقة الإسلام عندهم مجرد الانتساب إليه، ومن أجل ذلك لا يزيلون هذه الحقيقة عن من يعبد غير الله. ومن استعمل مثل هذه الحجج الواهية فهو من أعظم الملبسين الذين يريدون أن يدافعوا عن جهل حقيقة الإسلام وبالمقابل يجعلون المتبرئ منهم من الخوارج المارقين. كل هذا بما لا حجة فيه أصلا إلا محض تلبيس.

### مبحث: المعتزلة

المعتزلة قالوا في صفات الله إن الله سميع ليس له سمع ونحو ذلك، والعياذ بالله. ذلك لأنهم بفلسفتهم الملعونة تصوروا أن الصفة شيء مستقل قائم بذاته، فظنوا أن إثبات السمع وغيره لله يوجب أن كان مع الله شيء في كل زمان قديما مثله على حد تعبيرهم.

هذا مع الملاحظة المهمة أنهم لم ينفوا أن الله يسمع، إلا أنهم قالوا إن الله يسمع بذاته لا بصفة السمع. وعلى هذا لزمهم القول باشتقاق الاسم لمن لم يقم فيه الوصف أي أن يسموه سامعا مع عدم وصفه بالسماع وهذا من أبطل الباطل<sup>١</sup>.

---

<sup>١</sup> ذكر ذلك أيضا في مراقي السعود (فصل في الاشتقاق) عند قوله:



فقد اتضح بذلك عدم مناسبة هذه القضية لما نحن فيه، فهذا أبعد مما سبق، إذ المعتزلة لن يلتزموا بهذا الإلزام. فإنهم لا ينفون حقيقة السمع عن الله تعالى كما سبق.

### مبحث: من قال لأخيه يا كافر

قال البخاري رحمه الله:

(بَاب مَنْ كَفَّرَ أَخَاهُ بِغَيْرِ تَأْوِيلٍ فَهُوَ كَمَا قَالَ)

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ يَا كَافِرُ فَقَدْ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا))

وفي الحديث الذي بعده ((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ أَيُّمَا رَجُلٍ قَالَ لِأَخِيهِ يَا كَافِرُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا))

ثم قال في الباب التالي:

(بَاب مَنْ لَمْ يَرَ إِكْفَارَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ مُتَأَوَّلًا أَوْ جَاهِلًا وَقَالَ عُمَرُ لِحَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِنَّهُ مُنَافِقٌ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ قَدْ أَطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ قَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ)

شرح الأحاديث:

وعند فقد الوصف لا يشتق وأعوز المعتزلي الحق

وراجع الشروح تجد أنهم يصرحون أن هذا مما يلزم المعتزلة، فإنك إن ألزمتهم به لا يلتزمون به وهذا ظاهر.

• من قال للمسلم (يا كافر) لأنه ظنه كافرا حقيقة بناء على خطأ في تأويل بعض النصوص فإنه لا يكفر، مثل الخوارج فإنهم كفّروا كثيرا من المسلمين. لكنّ الخوارج فهموا معنى التوحيد وأن الصحابة رضي الله عنهم قد حققوا هذا المعنى. إن المشكلة كانت لديهم في ظنهم أن هؤلاء المسلمين وقعوا في ما يناقض توحيدهم بعد أن تحقق. فمن ظن أن الخوارج رأوا الإسلام والتوحيد نفسه شركا أو أنهم لم يعرفوه فهو جاهل ضال لم يفهم حقيقة قولهم.

• أما من قال للمسلم (يا كافر) مع ظنه أن قيامه بالتوحيد هو الكفر، فهذا لا يشك في كفره أحد من المسلمين.

• أما من قال للمسلم ذلك كاذبا عليه، مع علمه أنه مسلم صحيح الإسلام وأنه لم يقع منه شيء يناقض إسلامه - مثل أن يشهد أنه سجد لصنم كاذبا عليه - فهذا وقع فيه اختلاف، والله أعلم. ويلاحظ أن لفظ الحديث ((إِذَا قَالَ الرَّجُلُ)) و((أَيُّمَا رَجُلٍ قَالَ))، فالظاهر تعليق الحكم بالقول نفسه<sup>١</sup>. وكلام البخاري موافق لهذا لما قال (مَنْ لَمْ يَرَ إِكْفَارَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ).

<sup>١</sup> والظاهر أن القاعدة العامة عند كل من يكفر بهذا تعليق الله حكم الكفر بالقول المجرد نفسه.

ويلاحظ أن المراد هو أن يسببه بهذه اللفظة علما بتحريم استعمالها. إذ لو قال للمسلم (يا كافر) قاصدا كفران النعمة ونحو ذلك، جاهلا حرمة التلفظ بهذا القول يبعد أن يكفره أحد بهذا، بل قد يقوله على هذا النحو من باب الوصف والعظة. ثم قد يقوله كذلك بمعناه في اللغة الذي أصله من الستر ومنه سمي الفلاح كافرا.

---...

• يقال في كل ذلك العكس بالعكس. فمن قال للمشرك يا مسلم ففيه هذا التفصيل.

فلا يخفى على عاقل سواء عرف هذا الحديث أم لم يعرفه أن من قال للمشرك يا مسلم ظنا منه أنه محقق لحقيقة الإسلام متصف بها فإن هذا القائل لا يكون مسلما، وهو عين ما وقع فيه كثير من الناس اليوم من العامة وممن ينتسب إلى العلم والتدريس. ثم اتضح أيضا بُعد هذا الأمر عما ذكر من أن يثبت الاسم وشيئا من الأحكام مع نفي الحقيقة.

### مبحث: حقيقة قول الكرامية

الكرامية قالوا إن الإيمان هو الكلمة أي من قال لا إله إلا الله فهو يسمى مؤمنا. وبهذا لزمهم أن يسموا المنافق مؤمنا لأنه يأتي بالكلمة وإن أبطن الكفر. إلا أنهم لم يقولوا بأن المنافق الخالص معه الإيمان المنجي من الخلود في النار، بل علموا تماما أن المنافق مخلد في النار ومن زعم غير ذلك فإنه قد غلط عليهم غلطا كبيرا كما أكد ذلك المحققون من أهل العلم.

وأيضا فإن الكلام متعلق بالمنافق وهو من لا يظهر الكفر بل يظهر الإسلام ويستتر بهذا، ولو أظهر الكفر صار مرتدا معلوم الكفر وأجريت عليه أحكام المرتد. فالمسألة تعلقها

---

وينبه أيضا إلى أنه قد يعلم النص لكنه يتأول معناه تأويلا آخر، والتأويل نوع من الجهل.

وهذا التفصيل بعيد في الواقع، فالحديث في من يقصد مسبة المسلم بوصفه بحقيقة الكفر، فيرجع الأمر إلى ما تقرر هنا في هذه النقاط، والله تعالى أعلم.

بالنظر، إذ لو فرض أن أحد الكرامية حصل له اليقين بأن ذلك المعين منافق خالص بظهور كفره له فإنه لن يجري عليه أحكام المسلمين في الدنيا والآخرة. فخطأهم وإن كان خطأ كبيرا إلا أنه يبقى خطأ في مجرد التسمية. أما حقيقة الإسلام والإيمان فإنهم كانوا على علم أنها ليست متحققة في المنافق الخالص.

### فصل: خلاصة ما سبق في هذا الباب

لا شك أن المسائل والقضايا المذكورة إنما هي حالات استثناء، فإنها في غاية البعد عن حالة من يسمى المشرك مسلما ويلحق به جميع أحكام المسلمين في الدنيا فضلا عما يلحق بهم بعض أحكام الآخرة فضلا عما يلحق بهم جميع أحكام الآخرة ويجعلهم بذلك مسلمين من كل وجه.

ثم نعلم يقينا أن عامة الناس لا تخطر مثل هذه المباحث في بالهم أصلا ولا يمكن، لأن اللغة تقتضي أن من اتصف بالإسلام يسمى مسلما وأن من اتصف بالشرك الأكبر فإنه يسمى مشركا. إذ نحن نتكلم في من فهم حقيقة الإسلام والشرك، ولو لم يفهم الحقيقتين ما كان مسلما أصلا. فلا بد أن يعلم أن الإسلام والشرك نقيضان لا يجتمعان بحال. فلا يتصور أن صحيح العقل يقر بأن الشخص يتصف بشيء ثم يصفه بضده. فمن لم يدرس العلم ولم يتعلم أن الأسماء والأحكام قد تفرق في حالات نادرة مخصوصة لا يخطر كل هذا بباله أصلا.

فهل وجب على النبي ﷺ أن يقول لهم عند دخولهم الإسلام: (واعلموا أن من لم يقر بشهادة الإسلام مثلكم أنه لا يسمى مسلما ولا يتصف بالإسلام وأنه لم يدخل دينكم

وأن دينكم غير دينه وأنه ليس على ملة إبراهيم وأنه ليس موحدًا بل يسمى مشركًا ويتصف بالشرك إلخ؟!!

بل على تصور من يجعل الحالة المستثناة النادرة الوقوع جدا هي الأصل لزم أن يحذرهم النبي ﷺ عند دخولهم الإسلام من الحكم على أحد من المشركين بأنه كافر أو غير موحد أو مشرك أو أنه ليس على ملة إبراهيم حتى يتعلموا مسائل الأسماء والأحكام وافتراقهما في حالات نادرة ويتقنوا هذه المسائل.

فتجلى ما يلي:

- الذي لا شك فيه أن الأصل لغة وعقلا وشرعا هو أن المسلم نقيض المشرك وأن من تحقق فيه الشرك الأكبر فإن الإسلام زائل عنه بذلك لا محالة، فيسمى مشركا لا مسلما ويحكم عليه بأحكام المشركين في الدنيا والآخرة.
- أن غير ذلك لا يخطر على بال أحد من عامة الناس غير الدارسين لأنهم لم يدرسوا مباحث الأسماء والأحكام، بل إذا قالوا من يعبد غير الله مسلم فإنهم يقصدون به هو كغيره من المسلمين إلا أنه اقترف ذنبا أي لا يجوز إخراجهم من ملة الإسلام لأنه منها على الحقيقة. ومن كان هكذا فإنه لا يعلم معنى لا إله إلا الله.
- أن ما ذكر من افتراق الأسماء والأحكام ليس هو الأصل بل هي حالات استثناء نادرة فكيف تجعل هي الأصل؟ هذا أمر عجيب.
- أن هذه الحالات المذكورة ليس في شيء منها أن يجعل الشيء نقيضه اسما وحكما، بل غاية ما يكون هو إلحاق بعض الأحكام القليلة بالصنف الآخر أو أن يلحق به الاسم

باعتبار ما مع نفي الاسم عموماً. فأى مناسبة بين هذا وبين من يسمي المشركين مسلمين ويعاملهم معاملة المسلمين؟ شتان ما بينهما.

فلا بد أن يقال: من سمى المشرك مسلماً وعامله معاملة المسلمين فهذا يدل في الأصل على أنه لم يفهم معنى لا إله إلا الله. واحتمال التباس بعض قضايا الأسماء والأحكام في هذا ينبغي أن يعامل معاملة المعدوم. ثم عند افتراض وقوع هذا فإنه لا يقع إلا ممن هو عالم بمثل هذه الأمور مع ملاحظة جهله الكبير بأصول ومقاصد مهمة للشريعة.

### فصل: مسألة قيام الحجة وآخر درجات الضلال

سبق ذكر الدرجات التي يمكن تصورها في شأن الأسماء والأحكام، ويجب أن يذكر هنا أمر آخر وهو: لو التبس على المرء هل قامت على بعض الناس الحجة أم لا.

وهذا أمر محتمل. فالحق هو أن الحجة في المسائل الظاهرة - وفي التوحيد والشرك الذي هو أظهر المسائل الظاهرة - هي القرآن، فمن بلغه القرآن على وجه يمكن له به أن يفهم معنى الخطاب فالحجة عليه قائمة بلا شك.

لكن قد يتوهم بعض المسلمين خطأ في التأويل عدم قيام الحجة على بعض المشركين مع قيامها عليهم في نفس الأمر. وهؤلاء المتوقفون تقام عليهم الحجة ويبين لهم الحق بالأدلة من الكتاب والسنة. كل هذا مع علم هؤلاء المخطفين أن أولئك المشركين ليسوا مسلمين في شيء.

لكن أعظم درجات الضلال في هذه المسائل أن يجمع عدم قيام الحجة على عامة الناس إلى ما سبق من الضلالات بأن يدعي أن كل الناس اليوم ما قامت عليهم الحجة لانتشار

الجهل إلا من جلس معه ونوقش وأزيلت عنه جميع الشبهات وأنهم مسلمون جميعا في الاسم والأحكام لأنهم إنما يشركون بالله جهلا - والعياذ بالله.

-----

أسأل الله أن يجعل هذا الكتاب نافعا للمسلمين وأن يجعل نياتنا خالصة لوجهه الكريم، آمين.

تم بفضل الله ومنه وكرمه وأقول في كل ما سبق الله أعلم وأحكم.  
وصلّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه والحمد لله رب العالمين.

